تهذيب الأخلاق

تأليف

الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن محمد
ابن عربي الحاتمي

المتوفى ٦٣٨ هـ

اعتنى به

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين.

وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

إعلم أن الإنسان ـ من بين سائر الحيوان ـ ذو فكر وتمييز، وهو أبداً يحب من الأمور أفضلها، ومن المراتب أشرفها، ومن المقتنيات أنفسها، إذا لم يعدل عن التمييز في اختياره، ولم يغلبه هواه في اتباع أغراضه.

وأولى ما اختاره الإنسان لنفسه، ولم يقف دون بلوغ غايته، ولم يرضَ بالتقصير عن نهايته: تمامه وكماله.

ومن تمام الإنسان وكماله: أن يكون مرتاضاً بمكارم الأخلاق، ومحاسنها، ومتنزهاً عن مساويها ومقابحها، آخذاً في جميع أحواله بقوانين الفضائل، عادلاً في كل أفعاله عن طريق الرذائل، فإذا كان ذلك كان واجباً على الإنسان أن يجعل قصده اكتساب كل شيمة[1] سليمة من المعائب، ويصرف همته على اقتناء كل خِيم[2] كريم، خالص من الشوائب، وأن يبذل جهده في اجتناب كل خصلة مكروهة ردية، ويستفرغ وسعه في إطراح كل خلة مذمومة دنية، حتى يحوز الكمال بتهذيب خلائقه، ويكتسي حلل الجمال بدماثة[3] شمائله، ويباهي بحق أهل السؤدد[4] والفخر، ويلحق بالذرى[5] من درجات النباهة والمجد.

إلاّ أن المبتدىء بطلب هذه المرتبة، والراغب في بلوغ هذه المنزلة، ربما خفيت عليه الخلال المستحسنة، التي يعنيه تحريها، ولم تتميز له من المستقبحة التي غرضه توقيها.

(١) الشِّيمَة بالكسر: الطبيعة. والشامة: علامة تخالف البدن الذي هي فيه. والشامة: أثر أسود في البدن، وفي الأرض. وشيمة الإنسان: خلقه.

(٢) الخيم: بالكسر: السَّجيَّة والطبيعة، بلا واحد.

(٣) الدماثة: سهولة الخلق.

(٤) السُّؤْدُدُ: السيادة، والسَّائد: السيد.

(٥) الذُّرى: بالضم والكسر ذروة الشيء: أعلاه.

فمن أجل ذلك، وجب أن نقول في الأخلاق قولاً نبين فيه:

ما الخلق؟

وما علته؟

وكم أنواعه، وأقسامه؟؟

وما المرضي منها المغبوط صاحبه والمتخلق به؟

وما المشنو[1] منها، الممقوت فاعله، والمترسم به؟

ليسترشد بذلك: من كانت له همة تسمو إلى مباراة أهل الفضل، ونفس أبية، تنبو عن مساواة أهل الدناء والنقص، وتدل أيضاً على طريق الارتياض بالمحمود من أنواعه، والتدرب به، وتنكب المذموم منها وتجنبه، حتى يصير المرتاض به ديدناً وعادة وسجية وطبعاً ليهتدي به من نشأ على الأخلاق السيئة وألفها، وجرى على العادات الردية وأنس بها.

ونصف أيضاً الإنسان التام المهذب الأخلاق، والمحيط بجميع المناقب الجميلة، وطريقته التي يصل بها إلى التمام، وتحفظ عليه الكمال، ليشتاق إلى صورته من تشوق إلى الرتبة العليا، ويحن إلى احتذاء سيرته من استشرف إلى الغاية القصوى.

وقد ينتبه بما نذكره من كانت له عيوب قد اشتبهت عليه، وهو مع ذلك يظهر أنه في غاية الكمال.

فإن من هذه حاله إذا تكرر عليه ذكر الأخلاق المكروهة، تيقظ لما فيه من ذلك وأنف واجتهد في تركه والتنزه عنه.

وكذلك إذا تصفح الأخلاق المحمودة، من كان جامعاً لأكثرها، عادماً لبعضها، قدّم إلى التخلق بذلك البعض الذي هو عادم له، وتاقت نفسه إلى الإحاطة بجميعها.

وقد ينتفع بما نذكره أيضًا من كان في غاية الكمال، فإن المهذب الأخلاق الكامل الآلات، الجامع المحاسن، إذا مرّ بسمعه ذكر الخلائق الجميلة، والمناقب النفيسة، ورأى أن تلك هي عاداته وسجاياه، كانت له بذلك لذة عجيبة، وفرحة مبهجة، كما أن الممدوح يُسَر إذا ذكر المادح نفسه، ونشر فضائله.

وأيضاً فإنه إذا وجد أخلاقه مدونة في الكتب، موصوفة بالحسن، كان ذلك داعياً إلى الاستمرار على سيرته، والإصرار على طريقته.

---

(١) المشنو: مَشْنيٌّ ومَشحنُوٌّ: أي مُبْغَض.

وهذا حين ابتدائنا بذكر الأخلاق فنقول:

«إن الخلق هو حال النفس، بها يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختيار».

والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعاً، وفي بعضهم لا يكون إلاً بالرياضة والاجتهاد، كالسخاء، يوجد في كثير من الناس من غير رياضة، ولا تعمل، وكالشجاعة والحلم والعفة والعدل، وغير ذلك من الأخلاق المحمودة.

وكثير من الناس يوجد فيهم ذلك بالرياضة.

ومنهم من يبقى على عادته، ويجري على سيرته

الأخلاق المذمومة

فأما الأخلاق المذمومة، فإنها موجودة في كثير من الناس، كالبخل، والجبن، والظلم، والشر.

فإن هذه العادات غالبة على أكثر الناس، مالكة لهم.

بل قلما يوجد في الناس من يخلو من خلق مكروه، ويسلم من جميع العيوب.

ولكنهم يتفاضلون في ذلك.

وكذلك في الأخلاق المحمودة، قد تختلف الناس ويتفاضلون، إلاّ أن المجبولين على الأخلاق الجميلة قليلون جداً.

وأما المجبولون على الأخلاق السيئة، فأكثر الناس، لأن الغالب على طبيعة الإنسان الشر.

وذلك أن الإنسان إذا استرسل مع طبعه، ولم يستعمل: الفكر، ولا التميز، ولا الحياء، ولا التحفظ، كان الغالب عليه أخلاق البهائم، لأن الإنسان إنما يتميز عن البهائم بالفكر والتمييز.

فإذا لم يستعملها، كان مشاركاً للبهائم في عاداتها، والشهوات مستولية عليه، والحياء غائب عنه، والغضب يستنفره، والسكينة غير حاضرة له، والحرص والأحقاد ديدنه، والشر لا يفارقه.

فالناس مطبوعون على الأخلاق الردية، منقادون للشهوات الدنية.

ولذلك وقع الافتقار إلى الشرائع والسنن، والسياسات المحمودة، وعظم الانتفاع بالملوك الحسنى السيرة، ليردعوا الظالم عن ظلمه، ويمنعوا الغاصب عن غصبه، ويعاقبوا الفاجر على فجوره، فيقمعوا الجائر حتى يعود إلى الاعتدال في جميع أموره.

فالأخلاق المكروهة في طباع الناس.

إلاّ أن فيهم من يتظاهر بها، وينقاد لها، وهم شرار الناس.

وفيهم من ينتبه بجودة الفكر، وقوة التمييز لقبحها، فيأنف منها، ويتصنع لاجتنابها، وذلك يكون عن طبع كريم ونفس شريفة.

وفيهم من لا ينتبه لذلك، إلاَّ أنه إذا نبّه عليه أحس بقبحه، فربما حمل نفسه على تركه.

وفيهم من إذا انتبه لما فيه من النقائص، أو نبّه عليها، ورام العدول عنها: تعذر عليه ذلك، ولم يطاوعه طبعه، وإن كان مريداً للعدول عنها مجتهداً في ذلك.

وهذه الطائفة تحتاج أن ترشد إلى طريق التدرب والتعمل للعادات المحمودة، حتى يصير إليها على التدريج.

ومن الناس من ينتبه للأخلاق الردية أو ينبه عليها، فلا يحن إلى تجنبها، ولا تسمح نفسه بمفارقتها، بل يؤثر الإصرار عليها، مع علمه برداءتها وقبحها.

وهذه طائفة ليس إلى تهذيبها طريق، إلاَّ بالقهر والتخويف والعقوبة، إن لم يردعها الترهيب.

في الأخلاق المحمودة

فأما الأخلاق المحمودة فإنها وإن كانت في بعض الناس عزيزة، فليست في جميعهم، وإن الباقين قد يمكن أن يصيروا إليها بالتدرب والرياضة، ويترقوا إليها بالاعتياد والألفة.

ومع هذا الحال فقد يكون في الناس من لا يقبل طبعه العادات الحسنة، ولا الخلق الجميل، وذلك يكون لرداءة جوهره، وخبث عنصره.

وهذه الطائفة من جملة الأشرار، الذين لا يرجى صلاحهم، وكثير من الناس من يقبل كثيراً من الأخلاق المحمودة، وينبو طبعه عن بعضها، وليس يعد هذا شريراً، ولكن رتبته في الخير بحسب محاسنه.

فأما العلة الموجبة لاختلاف الأخلاق، وهي النفس، فللنفس ثلاث قوى، وهي تسمى أيضاً نفوساً.

وهي: النفس الشهوانية، والنفس الغضبية، والنفس الناطقة.

وجميع الأخلاق تصدر عن هذه القوى، فمنها ما يختص بإحداهن، ومنها ما يشترك فيه قوتان، ومنها ما يشترك فيه القوى الثلاث.

ومن هذه القوى ما يكون للإنسان وغيره من الحيوان.

ومنها ما يختص به الإنسان فقط.

في النفس الشهوانية

أما النفس الشهوانية، فهي للإنسان ولسائر الحيوان، وهي التي يكون بها جميع اللذات والشهوات الجسمانية، كالإقدام إلى المآكل والمشارب، والمباضعة[١].

وهذه النفس قوية جداً، متى لم يقهرها الإنسان، ويهذبها ملكته، فاستولت عليه.

فإذا هي استولت عليه خسر تهذيبها، وصعب قمعها وتذليلها.

فإذا تمكنت هذه النفس من الإنسان وملكته، وانقاد لها كان بالبهائم أشبه من بالناس، لأن أغراضه ومطلوباته وهمته تصير أبداً مصروفة إلى الشهوات واللذات فقط، وهذه هي عادات البهائم.

ومن يكون بهذه الصفة، يقل حياؤه، ويكثر خرقه[٢]، ويستوحش من أهل الفضل، ويميل إلى الخلوات، وينقبض عن المجالس الحفلة[٣]، ويبغض أهل العلم، ويشنأ أهل الورع والنسك، ويود أصحاب الفجور، ويحب الفواحش، ويكثر ذكرها، ويلذ له استماعها، ويسر بمعاشرة السفهاء، ويغلب عليه الهزل، وكثرة اللهو.

وقد يصير من هذه حالة إلى الفجور، وارتكاب الفواحش والتعرض للمحظورات.

وربما دعته محبة اللذات إلى اكتساب الأموال من أقبح وجوهها، وربما حملته نفسه على الغضب والتلصص، والخيانة، وأخذ ما ليس له بحق، فإن اللذات لا تتم إلا بالأموال والأعراض.

فمحب اللذة إذا تعذرت عليه الأموال من وجهها، جسرته شهوته على اكتسابها من غير وجهها.

---

(١) المُباضَعة: المجامعة وهي البضاع. ويقال: ملك فلان بُضع فلانة إذا ملك عُقْدة نكاحها، وهو كناية عن موضع الغشيان. والمباضعة: المباشرة؛ ومنه الحديث الشريف: وبُضْعُه أهلَه صدقه: أي مباشرته.

(٢) خَرِقَ الرَّجل بقي متحيراً من هم أو شدة. وخَرُق يَخْرُقُ فهو أخرق إذا حَمَق. وخَرِقَ بالشيء: جَهِلَه ولم يُحْسِنْ عمله.

(٣) الحفلة: المليئة بالناس المجتمعين للاحتفال: مجالس الجماعات.

ومن تنتهي به شهواته إلى هذا الحد، فهو أسوأ الناس حالاً، وهو من الأشرار، الذين يخاف خبثهم، ويستوحش منهم، ويستروح إلى البُعد عنهم، ويصير واجباً على متولي السياسات قمعهم وتأديبهم، وإبعادهم ونفيهم، حتى لا يختلطوا بالناس، فإن اختلاط من هذه صفته بالناس مضرة لهم، وخاصة لأحداثهم، فإن الحدث سريع الانطباع، ونفسه مجبولة إلى الميل إلى الشهوات، فإذا شاهد غيره مرتكباً لها، مستحسناً للانهماك فيها، مال هو أيضاً إلى الاقتداء به، وإلى مساعدة لذته.

وأما من ملك نفسه الشهوانية وقهرها، كان ضابطاً لنفسه، عفيفاً في شهواته، محتشماً من الفواحش، متوقياً من المحظورات محمود الطريقة في جميع ما يتعلق باللذات، فالعلة الموجبة لاختلاف عادات الناس في شهواتهم ولذاتهم، وعفة بعضهم، وفجور بعضهم، هو اختلاف أحوال النفس الشهوانية، فإنها إذا كانت مهذبة مؤدبة، كان صاحبها عفيفاً ضابطاً لنفسه، وإذا كانت مهملة مرسلة، مالكة لصاحبها، كان صاحبها فاجراً شريراً.

وإذا كانت متوسطة الحال، كانت رتبة صاحبها في العفة كرتبتها في التأدب.

فمن أجل ذلك وجب أن يؤدب الإنسان نفسه الشهوانية، ويهذبها حتى تصير منقادة له، ويكون هو مالكها، فيستعملها في حاجاته التي لا غنى عنها، ويكفها عما لا حاجة له إليه من الشهوات الردية، واللذات الفاحشة.

في النفس الغضبية

وأما النفس الغضبية، فيشترك فيها أيضاً الإنسان وسائر الحيوان.

وهي التي يكون بها: الغضب، والجراءة، ومحبة الغلبة.

وهذه النفس أقوى من النفس الشهوانية، وأضر بصاحبها إذا ملكته وانقاد لها.

فإن الإنسان إذا انقاد للنفس الغضبية كثر غضبه، وظهر خرقه، واشتد حقده، وعدم حلمه ووقاره، وقويت جراءته، وأسرع عند الغضب إلى الانتقام والإيقاع بمغضبه، والوثوب على خصومه، فأسرف في العقوبة، وزاد في التشفي فأكثر السب وأفحش فيه.

فإذا استمرت هذه العادات بالإنسان كان بالسباع أشبه منه بالناس.

وربما حمل قوماً على حمل السلاح.

وربما أقدموا على القتل والجراح.

وربما وثبوا بالسلاح على إخوانهم، وأوليائهم، وعبيدهم، وخدمهم عند الغضب من اليسير من الأمور.

وربما غضب من هذه حاله، ولم يقدر على الانتقام من خصمه، فيعود بالضرر والسب والألم على نفسه.

فمنهم من يلطم وجهه، وينتف لحيته، ويعض يده، ويسب نفسه، ويذكر عرضه.

وأيضاً فإن من تملكه النفس الغضبية يكون محباً للغلبة، متولياً على من آذاه، مقدماً على كل من ناوأه، طالباً للترؤس من غير وجهة.

فإذا لم يتمكن من الرياسة من وجهها، توصل إليها بالحيل الخبيثة، فاستعمل كل ما يمكنه من الشر.

وهذه الأفعال تورط صاحبها، وتوقعه في المهاوي والمهالك.

فإن من وثب على الناس، وثبوا عليه، ومن خاصمهم خاصموه، ومن أقدم عليهم أقدموا عليه، ومن تشرر عليهم قصدوه بالشر.

وربما تسفه الإنسان على خصمه، وكان الخصم أسفه منه، فإن ناله بسوء، قابله ذلك بأكثر منه.

وقد يغلب على من هذه حاله: الحسد، والحقد، والقحة[1]، واللجاج[2]، والجور.

وقد يحمل هؤلاء محبة الغلبة وطلب الرئاسة على اكتساب الأموال من غير وجهها، وأخذها بالغلبة والظلم.

وربما قتلوا على محبة الغلبة من يناوئهم.

وربما فعلوا ذلك من غير روية، فيؤول الأمر بهم إلى البوار والاستئصال.

فأما من ساس نفسه الغضبية، وأدّبها وقمعها: كان رجلاً، حليماً، وقوراً، عادلاً، محمود الطريقة.

فالعلة الموجبة لاختلاف عادات الناس في غيظهم وسفاهة بعضهم، هو اختلاف أحوال النفس الغضبية.

---

(١) القِحَة: الجفاء، والقُحُّ: الجافي من الناس كأنه خالص فيه. والوقاح الحافر الصلب، ورجل وقاح الوجه صُلْبُه: قليل الحياء، وقد وقح وقاحة وقِحَة.

(٢) اللجاج: الخُصومة.

إذا كانت مذللة مقهورة: كان صاحبها حليماً وقوراً.

وإذا كانت مهملة، مستولية على صاحبها، كان صاحبها: غضوباً، سفيهاً، غشوماً.

وإذا كانت متوسطة، كان صاحبها متوسط الحال، رتبته في الحلم كرتبة نفسه الغضبية، حتى تنقاد له فيملكها ويستعملها في المواضع التي يجب استعمالها فيها.

فإن لهذه النفس فضائل محمودة، وذلك لأن الأنفة من الأُمور الدنية، ومحبة الرئاسة الحقيقية، وطلب المراتب العالية، من الأخلاق المحمودة، وهي في أفعال النفس الغضبية.

فإذا ملك هذه بالتأديب والتهذيب، واستعملها في الأُمور الجميلة، وكفّها عن الأفعال المكروهة، كان حسن الحال، محمود الطريقة.

في النفس الناطقة

وأما النفس الناطقة، وهي التي بها تميز الإنسان من جميع الحيوان.

وهي التي بها يكون الذكر والتمييز، والفهم.

وهي التي بها شرف الإنسان وعظمت همته، فأعجب بنفسه.

وهي التي بها يستحسن المحاسن، ويستقبح القبائح، وبها يمكن الإنسان أن يهذب قوتيه الباقيتين، وهما: الشهوانية والغضبية، ويكفهما ويضبطهما وبها يفكر في عواقب الأمور، فيبادر باستدراكها في أوائلها.

ولهذه النفس أيضاً فضائل ورذائل.

أما فضائلها فباكتساب العلوم والآداب، وكف صاحبها عن الرذائل والفواحش، وقهر النفسين الآخرين، وتأديبهما، وسياسة صاحبهما في معاشه ومكسبه ومروءته وتجمله، وحث صاحبها على: فعل الخير، والتودد، والرقة، وسلامة النية، والحلم، والحياء، والنسك، والعفة، وطلب الرئاسة من الوجوه الجميلة.

وأما رذائلها: فالخبث، والحيلة، والخديعة، والملق[1]، والمكر، والحسد، والتشرر[2]، والرياء.

---

(١) المَلَق: الوُدُّ واللُّطف ظاهراً بأن تُعْطِيَ باللسان ما ليس في القلب.

(٢) التَّشَرُّر: في القاموس المحيط: قاذَحَهُ: شاتَمَه. وتَقَذَّح له بشَرٍّ: تَشَرَّرَ.

وهذه النفس هي لجميع الناس.

إلاّ أن منهم من تغلب عليه فضائلها، فيستحسنها ويستعملها.

ومنهم من تغلب عليه رذائلها فيألفها ويستمر عليها.

ومنهم من يجتمع فيه بعض الفضائل وبعض الرذائل.

وهذه العادات قد تكون في كثير من الناس سجية وطبعاً لا بتكلف.

فأما المطبوع على العادات الجميلة، فمنها ما يكون لقوة نفسه الناطقة عنصرياً.

وأما المطبوع على العادات المكروهة، فلضعف نفسه الناطقة، وسوء جوهره.

وأما الذي يجتمع فيه فضائل ورذائل، فهو الذي تكون نفسه الناطقة متوسطة الحال.

وقد يكتسب أكثر الناس هذه العادات، وجميع الأخلاق جميلها وقبيحها اكتساباً.

وذلك يكون بحسب منشأ الإنسان، وأخلاق من يحيط به، ويشاهده، ويقرب منه، وبحسب رؤساء وقته، ومن يشار إليه بالنباهة، ويغبط على رتبته فإن الحدث الناشىء يكتسب الأخلاق ممن يكثر ملابسته ومخالطته، ومن أبويه، وأهله وعشيرته.

فإذا كان هؤلاء سيئي الأخلاق مذمومي الطريقة، كان الحدث الناشىء بينهم أيضاً سيىء الأخلاق، مكروه العادات.

وإذا لحظ الحدث أيضاً أهل الرئاسة، من فوقه، وغبطهم على مراتبهم: آثر التشبه بهم والتخلق بأخلاقهم.

فإذا كانوا مهذبي الأخلاق حسني السيرة، كان المتشبه بهم حسن الأخلاق مرضي الطريقة.

وإن كانوا أشراراً جهّالاً خرج الغابط لهم، السالك طريقهم شريراً جاهلاً.

وهذه حال أخلاق أكثر الناس، فإن: الجهل، والشر، والخبث، والشره والحسد، غالب عليهم.

والناس بالطبع: يقتدي بعضهم ببعض، ويحتذي التابع أبداً سيرة المتبوع.

وإذا كان الغالب عليهم الشر والجهل، كان واجباً أن لا يقتدي أحداثهم وأولادهم وأتباعهم بهم.

فالعلة الموجبة لاختلاف قوة النفس: اختلاف الناس في سياساتهم وفضائلهم، وغلبة الخير والشر عليهم، من اختلاف قوة النفس الناطقة فيهم إذا كانت خيرة، فاضلة، قاهرة للنفسين الباقيتين، كان صاحبها خيِّراً عادلاً حسن السيرة، وإذا كانت شريرة، خبيثة مهملة للنفسين الآخريين، كان صاحبها شريراً خبيثاً جاهلاً.

فمن أجل ذلك، وجب أن يعمل الإنسان فكره، ويميز أخلاقه، ويختار منها ما كان جيداً مستحسناً جميلاً، وينفي منها ما كان مستنكراً قبيحاً، ويحمل نفسه على التشبه بالأخيار ويتجنب كل التجنب عادات الأشرار.

فإنه إذا فعل ذلك صار بالإنسانية متحققاً، وللرئاسة الذاتية مستحقاً.

في أنواع الأخلاق وأقسامها

فأما أنواع الأخلاق وأقسامها، وما المستحسن منها وما المستحب اعتياده ويعد فضائل، وما المستقبح منها وما المكروه ويُعد نقائص، ومعائب، فهي الأنواع التي نحن واصفوها:

أما التي تعد فضائل، فإن منها العفة، وهي: ضبط النفس عن الشهوات، وقسرها على الاكتفاء بما يقيم أود الجسد ويحفظ صحته، واجتناب السرف، والتقصير في جميع اللذات، وقصد الاعتدال، وأن يكون ما يقتصر عليه من الشهوات على الوجه المستحب، المتفق على ارتضائه، وفي أوقات الحاجة التي لا غنى عنها، وعلى القدر الذي لا يحتاج إلى أكثر منه، ولا يحبس النفس والقوة أقل منه.

وهذه الحال هي غاية العفة.

ومنها القناعة، وهي الاقتصار على ما سنح من العيش، والرضى بما يسهل من المعاش، وترك الحرص على اكتساب الأموال، وطلب المراتب العالية، مع الرغبة في جميع ذلك وإيثاره والميل إليه، وقهر النفس على ذلك، والتمتع باليسير منه.

وهذا الخلق مستحسن من أوساط الناس وأصاغرهم.

وأما الملوك والعظماء فليس ذلك مستحباً منهم، ولا تُعد القناعة من فضائلهم.

ومنها التصون، وهو التحفظ من التبذل. فمن التصون: التحفظ من الهزل القبيح، ومخالطة أهله، وحضور مجالسه، وضبط اللسان من الفحش، وذكر الخنا والقبيح، والمزاح السخيف، وخاصة في المحافل، ومجالس المحتشمين.

ولا أبهة لمن يسرف في المزاح، ويفحش فيه.

ومن التصون أيضاً الانقباض عن أدنياء الناس وأصاغرهم، ومصادقتهم، ومجالستهم والتحرز من المعايش الردية، واكتساب الأموال من الوجوه الخسيسة، والترفع عن مسألة الحاجات للئام الناس وسفلتهم، والتواضع لمن لا قدر له، والإقلال من البروز من غير حاجة والتبذل بالجلوس في الأسواق وقوارع الطرق من غير اضطرار.

فإن الإكثار من ذلك مخل.

وأعظم الناس قدراً عند الخلق: من ظهر اسمه وخفي شخصه.

وأما الحلم وهو ترك الانتقام عند شدة الغضب، مع القدرة على ذلك، وهذه محمودة ما لم تؤدِّ إلى ثلم جاه أو فساد سياسة.

وهي بالرؤساء والملوك أحسن، لأنهم أقدر على الانتقام من مغضبيهم، ولا يعد فضيلة: حلم الصغير عن الكبير وإن كان قادراً على مقابلته في الحال.

فإنه وإن أمسك، فإنما يعد ذلك خوفاً لا حلماً.

ومنها الوقار، وهو الإمساك عن فضول الكلام، والعيب وكثرة الإشارة، والحركة فيما يستغني عن الحركة فيه، وقلّة الغضب، والإصغاء عند الاستفهام، والتوقف عند الجواب، والتحفظ عن التسرع، والمبادرة في جميع الأمور.

ومن قبيل الوقار أيضاً: الحياء، وهو غض الطرف والانقباض عن الكلام حشمة للمستحيا منه.

وهذه العادة محمودة ما لم تكن عن عي[1] ولا عجز.

ومنها: الود، وهي: المحبة المعتدلة من غير اتباع الشهوة، والود مستحسن من الإنسان إذا كان وده لأهل الفضل والنبل، وذوي الوقار والأبهة، والمتميزين من الناس.

وأما التودد إلى أراذل الناس وأصاغرهم، والأحداث، والنسوان، وأهل الخلاعة، فمكروه جداً.

وأحسن الود ما ينتجه بين متآلفين: مناسبة الفضائل، وهو أوثق الود، وأثبته.

وأما ما كان ابتداؤه اجتماعاً على هزل أو لطلب لذة، فليس هو محموداً، وليس بباق، ولا ثابت.

---

(١) العَيّ: خلاف البيان، ويقال عَيٌّ بأمره وعيي إذا لم يهتدِ لوجهه.

ومنها: الرحمة، وهو خلق مركب من الود والجزع.

والرحمة: لا تكون إلا لمن ظهر منه لراحمه خلة مكروهة.

إما نقيصة، وإما محنة عارضة.

فالرحمة هي محبة للمرحوم، مع جزع من الحال التي من أجلها رحم.

وهذه الحال مستحسنة، ما لم تخرج بصاحبها عن العدل، ولم تنتهِ به إلى الجور، وإلى فساد السياسة، فليس بمحمود رحمة القاتل عند القود، والجاني عند القصاص.

ومنها: الوفاء، وهو الصبر على ما يبذله الإنسان من نفسه، ويرهن به لسانه، والخروج مما يضمنه، وإن كان مجحفاً به، فليس يعد وفياً من لم يلحقه بوفائه أذية وإن قلت. وكلما أضرّ به الدخول تحت ما يحكم به على نفسه، كان أبلغ في الوفاء.

وهذا الخلق محمود، ينتفع به جميع الناس.

فإن من عرف بالوفاء، كان مقبول القول، عظيم الجاه، إلا أن انتفاع الملوك بهذا الخلق، أكثر، وحاجتهم إليه أشد.

وإنه متى عرف منهم قلة الوفاء، لم يوثق بمواعيدهم، ولم تتم أغراضهم، ولم يسكن إليهم جندهم وأعوانهم.

ومنها أداء الأمانة، وهو التعفف عما يتصرف الإنسان فيه من مال وغيره، وما يوثق به وعليه من الأعراض، والحرم مع القدرة عليه، ورد ما يستودع إلى مودعه.

ومنها: كتمان السر.

وهذا الخلق مركب من الوقار، وأداء الأمانة.

فإن إخراج السر من فضول الكلام.

وليس بوقور من تكلم بالفضول.

وأيضاً، فكما أن من استودع مالاً فأخرجه إلى غير مودعه، فقد خفر[١] الأمانة، كذلك من استودع سراً فأخرجه إلى غير صاحبه، فقد خفر الأمانة.

وكتمان السر محمود من جميع الناس، وخاصة ممن يصحب السلطان، فإن إخراجه أسراره ـ مع أنه قبيح ـ يؤدي إلى ضرر عظيم، يدخل عليه من سلطانه.

---

(١) خَفَر: في اللسان: الخِفَارة: الذِّمة، وانتهاكها: إخفارها، وأخفر الذِّمّة: أي لم يفِ لمن يُجير.

ومنها: التواضع، وهو ترك الترؤس، وإظهار الخمول، وكراهية التعاظم والزيادة في الإكرام، وأن يتجنب الإنسان المباهاة بما فيه من الفضائل والمفاخرة بالجاه والمال، وأن يتحرز من الإعجاب والكبر.

وليس يكون حسن التواضع إلاً في أكابر الناس ورؤسائهم، وأهل الفضل والعلم.

وأما سوى هؤلاء، فليس يكونون متواضعين، لأن الضعة هي محلهم ورتبتهم، فهم غير متضعين لها.

ومنها البشر وهو إظهار السرور بمن يلقاه الإنسان من إخوانه وأودائه وأصحابه وأوليائه ومعارفه، والتبسم عند اللقاء.

وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس، وهو من الملوك والعظماء أحسن.

فإن البشر في الملوك يتألف به قلوب الرعية والأعوان والحاشية، ويزداد به تحبباً إليهم.

وليس سعيداً من الملوك من كان متبغضاً إلى رعيته.

وربما أدّى ذلك إلى فساد أمره، وزوال ملكه.

ومنها: صدق اللهجة، وهو الإخبار عن الشيء على ما هو به.

وهذا الخلق مستحسن، ما لم يؤدِّ إلى ضرر مجحف، فإنه ليس بمستحسن صدق الإنسان إن سئل عن فاحشة كان ارتكبها، فإنه لا يفي حسن صدقه بما يلحقه في ذلك من العار والمنقصة الباقية اللازمة.

وكذا ليس يحسن صدقه متى سئل عن مستجير استجاره فأخفاه، ولا إن سئل عن جناية متى صدق عنها عوقب عليها بعقوبة مؤلمة.

والصدق مستحسن من جميع الناس، وهو من الملوك والعظماء أحسن، بل لا يسعهم الكذب، ما لم يعد الصدق عليهم بضرر.

ومنها سلامة النية، وهو اعتقاد الخير لجميع الناس، وتجنب الخبث، والغيبة، والمكر، والخديعة.

وهذا الخلق محمود من جميع الناس، إلاَّ أنه ليس يصلح للملوك التخلق به دائماً، ولا يتم الملك إلاَّ باستعمال المكر والحيل والاغتيال مع الأعداء.

ولكن لا يحسن بهم استعماله مع أوليائهم، وأصفيائهم، وأهل طاعتهم.

ومنها السخاء، وهو: بذل المال من غير مسألة ولا استحقاق، وهذا الفعل مستحسن، ما لم ينتهِ إلى السرف والتبذير، فإن بذل جميع ما يملك لمن لا يستحقه، لم يُسَمَّ سخياً، بل يسمى مبذراً مضيعاً.

والسخاء في سائر الناس فضيلة مستحسنة، فأما في الملوك فأمر واجب، لأن البخل يؤدي إلى الضرر العظيم في ملكهم، والسخاء والبذل يرتهن به قلوب الرعية والجند والأعوان، فيعظم الانتفاع به.

ومنها الشجاعة، وهو: الإقدام على المكاره والمهالك، عند الحاجة إلى ذلك، وثبات الجأش عند المخاوف، والاستهانة بالموت.

وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس، وهو بالملوك وأعوانهم أليق وأحسن، بل ليس بمستحق للملك من عدم هذه الخلة.

وأكثر الناس أخطاراً وأحوجهم إلى اقتحام الغمرات، هم الملوك، فالشجاعة من أخلاقهم الخاصة بهم.

ومنها المنازعة، وهو منازعة النفس في التشبه بالغير فيما يراه له وهو يرغب فيه لنفسه، والاجتهاد في الترقي إلى درجة أعلا من درجته.

وهذا الخلق محمود إذا كانت المنافسة في الفضائل والمراتب العالية، وما يكسب مجداً وسؤدداً، فأما في غير ذلك من اتباع الشهوات، والمباهاة باللذات، والزينة، والبزة[1] فمكروه جداً.

ومنها: الصبر عند الشدة.

وهذا الخلق مركب من: الوقار والشجاعة.

ومستحسن جداً ما لم يكن الجزع نافعاً، ولا الحزن والقلق مجدياً، ولا الحيلة والاجتهاد دافعة ضرر تلك الحالة.

وما أقبح الجزع إذا لم يكن مفيداً.

ومنها عظمة الهمة، وهو: استصغار ما دون النهاية من معالي الأُمور، وطلب المراتب السامية، واستحقار ما يجود به الإنسان عند العطية، والاستخفاف بأوساط

---

(١) البِزّة: الشارة الحسنة من الثياب، والهيئة، واللِّبْسَة.

الأُمور، وطلب الغايات، والتهاون بما يملكه، وبذل ما يمكنه لمن يسأله، من غير امتنان ولا اعتداد به.

وهذا الخلق من أخلاق الملوك خاصة.

وقد يحسن بالرؤساء والعظماء، ومن تسمو نفسه إلى مراتبهم.

ومن عظم الهمة: الأنفة، والحمية والغيرة. والأنفة هو: نبو النفس عن الأُمور الدنية.

والحمية، والغيرة جميعاً هما: الغضب عند الإحساس بالنقص.

وإنما يلحق الإنسان الغيرة على الحرم، لأن في التعرض لهن عاراً ومنقصة، فإن المتعرض للحرم مهتضم لصاحبهن، ومتصرف في حق له.

والاهتضام: نقيصة.

ومن عظم الهمة الأنفة من الاهتضام، ودخول النقص.

وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس.

ومنها العدل: وهو الوسط اللازم للاستواء، وهو استعمال الأمور في مواضعها وأوقاتها، ووجوهها ومقاديرها، من غير سرف ولا تقصير، ولا تقديم ولا تأخير.

فأما الأخلاق الردية التي تعد نقائص ومعايب، فإن منها: الفجور، وهو الانهماك في الشهوات، والاستكثار منها، والتوفر على اللذات، والإدمان عليها، وارتكاب الفواحش، والمجاهرة بها.

وبالجملة: السرف في جميع الشهوات.

وهذا الخلق أبداً يهدم الحياء، ويذهب ماء الوجه، ويخرق حجاب الحشمة.

ومنها الشره، وهو: الحرص على اكتساب الأموال وجمعها وطلبها من كل وجه، وإن قبح التعسف في اكتسابها، والكالبة عليها، والاستكثار من القنية وإدخار الأعراض.

وهذا الخلق مكروه في جميع الناس، إلاَّ من الملوك، فإن كثرة الأموال والذخائر والأعراض تعين على الملك، وتزين الملوك، وتزيدهم هيبة في نفوس رعيتهم، وأعوانهم، وأعاديهم وأضدادهم.

ومنها التبذل، وهو: إطراح الحشمة، وترك التحفظ عن الهزل واللهو، ومخالطة السفهاء، وحضور مجالس السخف والهزل والفواحش، والتفوه بالخنا[1]، وذكر الأعراض والمزح، والجلوس في الأسواق، وعلى قوارع الطرق، والتكسب بالمعاش الرديء، والتواضع للسفلة.

وهذا الخلق قبيح بجميع الناس.

ومنها السفه، وهو ضد الحلم، وهو سرعة الغضب والطيش، من يسير الأُمور، والمبادرة في البطش والإيقاع بالمؤذي، والسرف في العقوبة، وإظهار الجزع من أدنى ضرر، والسب الفاحش.

وهذا الخلق: مستقبح من كل أحد، إلاّ أنه من الملوك والرؤساء أقبح.

ومنها الخرق وهو كثرة الكلام والتحرك من غير حاجة، وشدة الضحك، والمبادرة إلى الأمور من غير توقف، وسرعة الجواب.

وهذا الخلق مستقبح من كل أحد.

وهو بأهل العلم وذوي النباهة: أقبح.

ومن قبيل الخرق القحة، وهو: قلة الاحتشام، لمن يجب احتشامه، والمجاهرة بالجوابات الفظة المستشنعة.

وهذا الخلق مكروه، وخاصة بذوي الوقار.

ومنها العشق، وهو إفراط الحب، والسرف فيه.

وهذا الخلق مكروه على جميع الأحوال، إلاّ أن أقبحه وأشره: ما كان مصروفاً إلى طلب اللذة، واتباع الشهوة الردية.

وقد يحمل صاحبه على الفجور وارتكاب الفواحش، وكثرة التبذل، وقلّة الحياء، ويكسبه عادات ردية، وهو بكل أحد قبيح، إلاّ أنه بالأحداث، والمترفهين والمتنعمين: أقل قبحاً.

ومنها القساوة، وهو: خلق مركب من: البغض، والشجاعة.

والقساوة هي: التهاون بما يلحق الغير من الألم والأذى.

وهذا الخلق مكروه من كل أحد، إلاّ من الجندي وأصحاب السلاح والمتولين الحروب، فإن ذلك غير مكروه منهم إذا كان في موضعه.

---

(١) الخنا: الفحش، الخنا: من قبيح الكلام.

ومنها الغدر، وهو: الرجوع عما يبذله الإنسان من نفسه، ويضمن الوفاء به، وهذا الخلق مستقبح، وإن كان لصاحبه فيه مصلحة ومنفعة، وهو بالملوك والرؤساء أقبح، وبهم أضر، فإن عرف من الملك الغدر لم يسكن إليه أحد، ولم يثق به، وإذا لم يسكن إليه: فسد نظام ملكه.

ومنها: الخيانة، وهو الاستبداد بما يؤمن الإنسان عليه من الأموال والأعراض والحرم وتملك ما يستودع، ومجاهدة مودعه.

ومن الخيانة أيضاً طي الأخبار إذا بدت مصلحة لتأديتها، وتحريف الرسائل إذا تحملها وصرفها عن وجهها.

وهذا الخلق - أعني الخيانة - مكروه من جميع الناس، يثلم الجاه، ويقطع وجوه المعايش.

ومنها إفشاء السر.

وهذا الخلق مركب من الخرق والخيانة، فإنه ليس بوقور من لم يضبط لسانه، ولم يتسع صدره لحفظ ما يستسر له.

والسر أحد الودائع، وإفشاؤه نقيصة على صاحبه فالمفشي للسر: خائن.

وهذا الخلق قبيح جداً، وخاصة ممن يصحب السلاطين ويداخلهم.

ومن قبيل إفشاء السر: النميمة، وهو أن يبلغ إنساناً عن آخر قولاً مكروهاً.

وهذا الخلق: قبيح جداً.

وإن لم يستسر أيضاً بما يسمعه أو يبلغه، فنقله إلى من يكرهه: قبيح، لأن في ذاك إيقاع وحشة بين المبلغ والمبلغ عنه.

وذلك غاية التشرر.

ومنها: الكبر، وهو استعظام الإنسان بنفسه، واستحسان ما فيه من الفضائل، والاستهانة بالناس، واستصغارهم، والترفع على من يجب التواضع له.

وهذا الخلق: مكروه ضار لصاحبه، لأن من أعجبته نفسه، لم يستزد من اكتساب الأدب.

ومن لم يستزد بقي عليه نقصه.

فإن الإنسان ليس يخلو من النقص، وقلما ينتهي إلى غاية الكمال.

وأيضاً فإن هذا الفعل يبغضه إلى الناس، ومن أبغضه الناس ساءت حاله.

ومنها العبوس: وهو التقطيب عند اللقاء، وقلّة التبسم، وإظهار الكراهية.

وهذا الخلق مركب من: الكبر، وغلظ الطبع.

فإن قلّة البشاشة، هي: الاستهانة بالناس، والاستهانة بالناس تكون من الإعجاب والكبر.

وقلّة التبسم أيضاً ـ وخاصة عند لقاء الإخوان ـ يكون من غلظ الطبع، وهذا الخلق مستقبح وخاصة بالرؤساء والأفاضل.

ومنها: الكذب، وهو: الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه.

وهذا الخلف: مكروه، وما لم يكن لدفع مضرة، لا يمكن أن تدفع إلاّ به، واجترار نفع لا غنى عنه، ولا يوصل إليه إلاّ به.

فإن الكذب عند ذلك ليس بمستقبح، وإنما بمستقبح الكذب إذا كان عبثاً، ولنفع يسير لا خطر له، لا يفي بقباحة الكذب.

والقبح بالملوك والرؤساء أكثر، لأن اليسير من النقص يشينهم.

ومنها: الخبث: وهو إضمار الشر للغير، وإظهار الخير له، واستعمال الغيلة، والمكر، والخديعة في المعاملات.

وهذا الخلق: مكروه من جميع الناس، إلاّ من الملوك والرؤساء، فإنهم إليه مضطرون، واستعمالهم إياه مع أضدادهم وأعدائهم لا يستقبح.

فأما أوليائهم وأصحابهم، فإنه غير مستحسن.

ومن قبيل الخبث: الحقد، وهو إضمار الشر للجاني إذا لم يتمكن من الانتقام منه، فأخفى تلك الأحقاد إلى وقت إمكان الفرصة.

وهذا الخلق: من أخلاق الأشرار، وهو مذموم جداً.

ومنها البخل: وهو منع المسترفد مع القدرة على رفده.

وهذا الخلق: مكروه من جميع الناس، إلاّ أنه من النساء كمال.

وأما سائر الناس، فإن البخل: يشينهم، وخاصة الملوك، والعظماء، فإن البخل يغض منهم أكثر مما يغض من الرعية والعوام، ويقدح في ملكهم، لأنه يقطع الأطماع منهم، ويبغضهم إلى رعيتهم.

ومنها: الجبن، وهو الجزع عند المخاوف، والإحجام عما تحذر عاقبته ولا تؤمن مغبته[(١)].

وهذا الخلق: مكروه من جميع الناس، إلاَّ أنه بالملوك والجند وأصحاب الحروب: أضر.

ومنها الحسد، وهو: التألم بما يراه الإنسان لغيره من الخير، وما يجده فيه من الفضائل، والاجتهاد في إعدام ذلك الغير ما هو له.

وهذا الخلق: مكروه، وقبيح بكل أحد.

ومنها الجزع عند الشدة، وهذا الخلق مركب من الخرق والجبن.

وهو يستقبح إذا لم يكن مجدياً ولا مفيداً، فأما إظهار الجزع لتعمل حيلة بذلك عند الوقوع في الشدة، واستغاثة مغيث، أو اجتلاب معين، فيما تغنى فيه المعاونة، فغير مكروه، ولا يعد نقيصة.

ومنها صغر الهمة، وهو: ضعف النفس عن طلب المراتب العالية، وقصور الأمل عن بلوغ الغايات، واستكثار اليسير من الفضائل، واستعظام القليل من العطايا، والاعتداد به. والرضى بأوساط الأمور وأصاغرها.

وهذا الخلق: قبيح بكل أحد، وهو بالملوك أقبح، بل ليس بمستحق الملك من صغرت همته.

ومنها: الجور، وهو: الخروج عن الاعتدال في جميع الأمور، والسرف والتقصير، وأخذ الأموال من غير وجهها، والمطالبة بما لا يجب من الحقوق، وفعل الأشياء في غير مواضعها ولا أوقاتها، ولا على القدر الذي يجب، وعلى الوجه الذي يجب.

ومن الأخلاق ما هو في بعض الناس فضيلة، وفي بعضهم رذيلة.

فمنها: حب الكرامة، وهو أن يسر الإنسان بالتعظيم والتبجيل، والمقابلة بالمديح، والثناء الجميل.

وهذا الخلق محمود في الأحداث والصبيان، لأن محبة الكرامة تحثهم على اكتساب الفضائل.

---

(١) المغبة: العاقبة. وغبَّ الأمر: صار إلى آخره. وغِبُّ كل شيء: عاقبته.

وذلك أن الحدث والصبي، إذا مدح على فضيلة ترى فيه كان ذلك داعياً له من الازدياد من الفضائل.

وأما الأفاضل من الناس، فإن ذلك يعد منهم نقيصة، لأن الإنسان إنما يمدح على الفضيلة إذا كانت مستغربة منه، وإذا كان من أهل الفضل، فليس ينبغي أن يسر، بأن يستغرب ما يظهر منه من الفضائل.

وكذلك الإكرام والتبجيل إذا كان زائداً على استحقاقه، فإنه يجري مجرى الملق، والسرور بالملق غير محمود، لأنه من جنس الخديعة.

ومنها: حب الزينة، وهو التصنع بحسن البزة، والركوب، والآلات، وكثرة الخدم والحشم.

وهذا مستحسن من الملوك والعظماء، والأحداث، والظرفاء والمتنعمين، والنساء.

وأما الرهبان، والشيوخ، وأهل العلم، وخاصة الخطباء والواعظين، ورؤساء الدين، فإن الزينة والتصنع: مستبح منهم.

والمستحسن منهم: لبس الشعر، والخشن، والمشي، والخفاء، ولزوم الكنائس[1]، وحبرهم، وكراهية التنعم.

ومنها المجازاة على المدح، وهو: مجازاة من يمدح الإنسان، ويشكره في المجالس والمحافل.

وهذا الخلق مستحسن من الملوك والرؤساء، لأن ذلك يدعو الناس إلى مدحهم، ويكسب الممدوح ذكراً جميلاً، يبقى على الدهر.

ومن فضائل الملوك والرؤساء: بقاء ذكرهم الجميل، فأما محبتهم سماع المدح مواجهة، فذلك غير مستحب، لأنه من جنس الملق، وحب الملق مكروه، لأنه من قبيل الخديعة.

وأما إيثارهم انتشار ذكرهم ومدحهم، وتداول الناس له، وبقاءه بعدهم، فإن ذلك محمود منهم.

فمجازاة المادح مستحسنة من الملوك، ومنعهم مستقبح وضار، لأن ذلك يدعو إلى ذمهم.

وذمهم يبقى أيضاً على الدهر، فينشر لهم ذكراً قبيحاً، وذلك مكروه للملوك والرؤساء.

---

(١) يقصد لزوم الخلوات للرهبان ومن هذه الخلوات كنائسهم.

وأما أصاغر الناس، فمحبتهم جزاء المادح محمودة، فإنه إذا مدح الدنيء من الناس فإنما يخدعه، فإذا أجازه اعتقد أنه استرق منه تلك الجائزة.

وكثير من الناس إذا مدحوا بما ليس فيهم: يبادرون إلى مجازاة المادح، فيكونون قد وضعوا الشيء في غير موضعه، وهم إذا صرفوا ذلك الشيء إلى الضعفاء، وأهل المسكنة كان أجمل بهم وأليق.

ومنها: الزهد، وهو: قلّة الرغبة في الأموال والأعراض والإدخار، والقنية، وإيثار القناعة بما يقيم الرمق، والاستخفاف بالدنيا ومحاسنها ولذاتها، وقلّة الاكتراث بالمراتب العالية، واستصغار الملوك وممالكهم، وأرباب الأموال وأموالهم، وهذا الخلق مستحسن جداً، ولكن من العلماء والرهبان ورؤساء الدين والخطباء والواعظين، ومن يرغب الناس في المعاد والبقاء بعد الموت.

وأما الملوك والعظماء، فإن ذلك غير مستحسن منهم، ولا لائق بهم، لأن الملك إذا أظهر الزهد، فقد صار ناقصاً، لأن ملكه لا يتم إلاً باحتشاد الأموال والأعراض وإدخارها، ليذب بها عن ملكه، وصار معدوداً من جملة النقص من الملوك الحائدين عن طريق السياسة.

فهذه الأقسام التي ذكرناها، هي أخلاق جميع الناس.

أما المحمود منها، المعدود فضائل، فقلما تجمع كلها في إنسان واحد.

وأما المذموم منها، المعدود نقائص ومعايب، فقلما يوجد إنسان يخلو من جميعها، حتى لا يكون فيه خلق مكروه وخاصة من لم يرض نفسه ويؤدبها، فإن لم يتعمل لضبط نفسه، ويفتقد من عيوبه، لم يخل من عيوب كثيرة، وإن لم يحسن بها، ولم يفطن لها، فإن كان الأمر على ما ذكرنا، كان الأجدر بالإنسان أن يتفقد أخلاقه، ويتأمل عيوبه، ويجتهد في إصلاحها، وينفيها عن نفسه، ويتبع الأخلاق المحمودة، ويحمل نفسه على اعتيادها والتخلق بها فإن الناس إنما يتفاضلون على الحقيقة بفضائلهم، لا كما يعتقد الجهال والعامة: أنهم يتفاضلون بأحوالهم وأموالهم، وكثرة الذخائر والأعراض، فإن أكثر الناس إنما يتفاخرون بالذخائر والأموال، والآلات، ويعظمون أبداً الأغنياء وذوي الأحوال، ولا يترتب بعضهم على بعض إلاً بكثرة الأموال، وبالجاه المكتسب بالمال.

وليس كثرة الأموال، مما تفاضل بها أحوال الناس، فأما نفوسهم، فليس تكون أفضل من نفوس غيرهم، بكثرة الأموال.

وذلك أن الفاجر السفيه الجاهل الشرير ـ وإن حوى أموالاً عظيمة ـ فليس يكون أفضل من الضعيف الحكيم العالم الخبير، وإن كان فقيراً.

بل إنما يكون بكثرة الأموال أغنى منه، فأما في الفضل فليس يكون أحد أفضل من أحد إلاَّ بكثرة الفضائل فقط.

فإن اجتمع للإنسان، مع أخلاقه الجميلة والعادات المستحسنة ـ الغنى والثروة، فلعمري أنه يكون أحسن حالاً من الفاضل المقتر، لأنه من سعادات الإنسان أيضاً ـ وخاصة إذا كان فاضلاً، عادلاً، عفيفاً، وأنه يصرف ماله في وجوهه، وينفقه في حقوقه، ويتفقد به من يجب تفقده، ويسعف به أهل المسكنة، ولا يقعد عما يجب فإن فارق صاحبهوسقطت منزلة صاحبه من نفوس الناس، وساوى العامة والسوقة لأنه إذا كان رأس المال المعظم له هو ماله: لا نفسه، فإذا زال ذلك المال، لم يبقَ له شيء يعظم من أجله.

وليس كذلك الفاضل النفس، المهذب الأخلاق، فإن هذا رئاسته بفضائله، وفضائله غير مفارقة له، فهو رئيس ما دام ومعظم لذاته لا لشيء من خارج، ولأن الراغب في سياسة نفسه، المؤثر تهذيب أخلاقه، إذا نبّه على خلق مذموم يجده في نفسه، وأحب اجتنابه، ربما صعب الانتقال عنه من أول وهلة، وربما لم ينل التخلص منه، ولم يطاوعه طبعه، وربما استحسن أيضاً خلقاً محموداً لا يجده لنفسه، وأثر التخلق به، ولم تستجب له عادته، ولم يصل إلى مراده، فوجب أن نرسم للراغبين في السياسة المحمودة طرقاً يتدربون بها، ويتدرجون فيها، حتى ينتهوا إلى مرادهم من اعتياد الأخلاق الجميلة، والانطباع بها، وتجنب الأخلاق القبيحة والتفرغ منها فنذكر من أجل ذلك:

في طريق الارتياض بالأخلاق والتعمل لاعتيادها

وقد ذكرنا فيما تقدم: أن سبب اختلاف الأخلاق في الناس، هو اختلاف قوى النفس الثلاث فيهم، وهي: الشهوانية، والغضبية، والناطقة.

وإن ملاك الأخلاق، هو تذليل الشهوانية منها، والغضبية، وتمييز عادات النفس الناطقة، واستعمال المحمود من أفعالها.

وطريق التدريج لاستعمال العادات الجميلة، والعدول عن العادات المستقبحة، هو التدرج في تذليل هاتين القوتين.

* * *

أما النفس الشهوانية فالطريق إلى قمعها أن يتذكر الإنسان في وقت شهواته، وعند شدة القدوم إلى لذاته، أنه يريد تذليل نفسه الشهوانية، فيعدل عما تاقت نفسه إليه من الشهوة الردية إلى ما هو مستحسن، من جنس تلك الشهوة، متفق على ارتضائه، فيقتصر عليه.

فإن بذلك الفعل تنكسر شهوته ثم يعللها ويعدها، فإن سكنت، وإلاَّ عاود الفعل من الوجه المستحسن، فإنه إذا فعل ذلك وتكرر فعله، كفت النفس، وإن استمر على هذه الحالة ألفت النفس هذه العادة، وأنست بها، واستوحشت مما سواها.

وينبغي ـ لمن أراد قمع نفسه الشهوانية ـ أن يكثر من مجالسة الزهاد والرهبان والنساك وأهل الورع والواعظين، ويكرم مجالسة الرؤساء وأهل العلم، فإن الرؤساء ـ وخاصة رؤساء الدين ـ يعظمون من كان معروفاً بالعفة ويستزرون من كان فاجراً متهتكاً[١].

وملازمته لهذه المجالس تضطره إلى التصون، والتعفف، والتجمل لأولئك لئلا يستزروه ويغضوا منه، وليلق برتبة من يعظم في المحافل.

وينبغي له أيضاً أن يديم النظر في كتب الأخلاق والسياسة، وأخبار الزهّاد والرهبان، والنسّاك، وأهل الورع، ويجب عليه أن يتجنب مجالس الخلعاء والسفهاء، والمتهتكين، ومن يكثر الهزل واللعب.

وأكثر ما يجب عليه: تجنب السكر، فإن السكر من الشراب يثير نفسه الشهوانية، ويقويها، ويحملها على التهتك وارتكاب الفواحش، والمجاهرة بها، وبذلك إن الإنسان إنما يرتدع عن القبائح بالعقل والتمييز؛ وإذا سكر عدم ذلك الذي كان يردعه عن الفعل القبيح، فلا يبالي أن يرتكب كل ما كان يتجنبه في صحوه.

فأولى الأسباب لمن طلب العفة هجر الشراب بالجملة، وإن لم يمكنه، فليقتصر على اليسير منه[٢] ويكون في الخلوات، أو مع من لا يحتشمه، ويتجنب مجالس المجاهرين بالشراب والسكر، والخلاعة، ولا يظن أنه إن حضر تلك المجالس، واقتصر على اليسير من الشراب: لم يستضر به، فإن هذا غلط.

---

(١) متهتكاً: لا يبالي أن يهتك سِتْرُهُ أي يكشف. والاسم الهتك وهو خرق السِّتر عما وراءه.

(٢) يعلمه الشيخ كيفية ترك الشراب لمن كان مأسوراً به ومدعياً أنه مبتلىً به ولا يستطيع تركه وكان ضعيف الإرادة قليل الإيمان وأما إذا كان قوي الإرادة والإيمان فإنه يجتنبه بمجرد معرفته لحكم الله تعالى فيه وهو التحريم.

وذلك أن من حضر مجالس الشراب، ليس تنقاد له نفسه إلى القناعة بيسير الشراب، بل إن حضر مجالس الشراب، وكان في غاية العفة، تاركاً للشراب، متمسكاً بالورع، حملته شهوته على التشبه بأهل المجلس، وتاقت نفسه إلى الفعل لما هو أكثر من ذلك، وتهتك بعد الستر والصيانة.

فسيمة أحوال من طلب العفة: عدم حضور مجالس الشراب ومخالطة أهلها والاستكثار من معاشرتهم.

وينبغي لمن أراد قمع نفسه الشهوانية أن يقل من استماع السماع، وخاصة النسوان والشابات منهن، المتصنعات، فإن للسماع قوة عظيمة في إثارة الشهوة، فإذا انضاف إلى ذلك: أن تكون المسمعة مشتهاة متعلمة لاستمالة العيون إليها: اجتمع على السماع حوادث كثيرة، فربما لم يستطع دفع جميعها عن نفسه، والأولى لمن هم بقهر الشهوة: أن يتجنب السماع، وإن لم يكن منه بد، ولم تستجب نفسه إلى هجره بالكلية، فليقتصر على استماعه من الرجال، ومن لا مطمع للشهوة فيه، والإقلال منه خير وأصون للمتعفف.

فأما الطعام، فينبغي أن يعلم أن غايته هو: الشبع، لدفع ألم الجوع، فخير الطعام وردية جميعاً مشبعان، فليس للمبالغة في تجويد الطعام كبير حظ.

والأولى هو التوسط في أنواع المآكل، وأن يكون في الجنس الذي نشأ عليه الإنسان، واعتاده وألفه، على أن شهوة الطعام والنهم فيه، وإن كان من الأخلاق الرديئة فهو أسهلها وأهونها، وليس يكسب صاحبها من العار ما يكسبه محبة الشراب والمباضعة، ومعاشرة النسوان ومصاحبة الأحداث، المتهيئين للفواحش، فإن ذلك في غاية القبح، وشهوة المآكل أقل قبحاً منه، وأخف على فاعله، وهو مع ذلك قبيح، والاستهتار به وكثرة النهم والشره إليه مكروه، وطريق التدرج إلى الاقتصاد في الطعام، هو: أن يبادر ذو الشهوة إلى أي شيء وجده من المأكل، فإن كان المشتهي الذي تاقت نفسه إليه حلواً فإلى أي حلاوة وجدها، وإن كان غير ذلك، فإلى ما يشابهه في الطعم فإنه إذا تناول من الطعام ما يشبهه ذلك المشتهي في الطعم، فإن شهوته تسكن، ونفسه تكف.

وينبغي لمن أحب العفة أن يكون أبداً متيقظاً، ذاكراً لما يلحق الفاجر والنهم والشره والمتهتك من القباحة والعار، ويجعل ذلك ديدنه وشعاره، فإن نفسه تبغض الشهوات، وتشتاق إلى التعفف والقناعة، وتطرب عند العدول عن الفواحش، مع

القدرة عليها، وترتاح لما ينشر عنها، ويبلغها عن الناس من الثناء الجميل على صاحبها.

فهذا الذي ذكرنا هو: طريق رياضة النفس الشهوانية، وتذليلها وقمعها، وهو طريق الارتياض بالعادات المحمودة المرضية، فيما يتعلق بالشهوات واللذات.

فأما النفس الغضبية فإن الطريق في قمعها وتذليلها هو: أن يصرف الإنسان همته إلى أن يتفقد السفهاء الذين يسرع إليهم الغضب في أوقات طيشهم وحِدَّتهم وتسفههم على خصومهم، وعقوبتهم لخدمهم وعبيدهم، فإنه يشاهد منهم منظراً شنيعاً، يأنف منه الخاص والعام، فإن تذكر ما شاهد في أوقات غضبه، وعند جنايات خدمه وعبيده، وعند ذنوب إخوانه وأودائه، وفي جميع محاوراته ومعاملاته، فإنه إذا تذكر ما كان استقبحه من السفهاء، انكسرت بذلك سورة[1] غضبه، وأحجم عَمَّا هَمَّ بالإقدام عليه من السب والوثوب، فإن لم يكف بالكلية أقصر، ولو أنه غاية الفحش.

وينبغي لمن أراد أن يقهر نفسه الغضبية، أن يذكر أوقات غضبه على من يؤذيه، أو يجني عليه، أنه لو كان هو الجاني: ما الذي كان يستحق على جنايته؟

فإنه بهذا الفعل يعتقد أن درك تلك الجناية، أو أرش[2] ذلك الأذى: يسير جداً.

فإذا اعتقد ذلك، كانت مقابلته للجاني، والمؤذي، بحسب اعتقاده، فلا يسرف في الانتقام، ولا يفحش في الغضب.

فإذا فعل ذلك دائماً، وجعله ديدناً، وتفقد معائب السفهاء، ومن يسرع إليه الغضب، لم يبعد أن تنكسر نفسه الغضبية وتنقاد، فإذا استمر على ذلك مدة: صار خلقاً وعادة.

وينبغي لمن يرغب في تذليل نفسه الغضبية أن يتجنب حمل السلاح، وحضور مواضع الحروب، ومقامات الفتن، ومجالسة الأشرار، ومعاشرة السفهاء، ومخالطة الشرط، فإن هذه المواضع تكسب القلب قساوة وغلظة، وتعدمه الرأفة والرحمة، فتقسو لذلك نفسه الغضبية.

---

(١) سَوْرَة الخمر وغيرها: حِدَّتُها، وسورة السلطان: سطوته واعتداؤه، والسَّوْرة في الرأس: تناول الشراب.

(٢) الأرش: دية الجراحات. والأرش من الجراحات: ما ليس له قدر معلوم. والأرش المشروع في الحكومات: هو الذي يأخذه المشتري من البائع إذا اطلع على عيب في المبيع.

فإذا كان يريد تذليلها وتسكينها، وجب أن يجعل مجالسته لأهل العلم، وذوي الوقار، والشيوخ، والرؤساء، والأفاضل، ومن يقل غضبه، ويكثر حلمه ووقاره.

وينبغي له أيضاً: أن يتجنب المسكر من الشراب، فإن السكر يهيج النفس الغضبية أكثر مما يهيج الشهوانية، وبذلك ربما يسرع إلى العربدة، والوثوب على جلسائه، والاستخفاف بهم وسبهم، وذكر أعراضهم، بعد أن كان يتحنن عليهم، ويتودد إليهم.

ولا يكون بين الوقتين إلاً بمقدار ما يستحكم عليه السكر، فالسكر مثير للقوة الغضبية، ومقولها، فمن أراد أن تسكن نفسه الغضبية، فلا بد أن يتجنب المسكر.

وإن تمكن من هجران الشراب البتة، فهو أصلح لقهر النفس الغضبية والشهوانية - جميعاً.

وينبغي لمن أراد تذليل قوته الغضبية والشهوانية أن يستعمل في جميع ما يفعله الفكر، ولا يقدم على الشيء إلاّ بعد أن يتروى فيه، ويجعل الفكرة واتباع الرأي ديدنه وعادته، فإن الرأي وجودة الفكر، يقبحان له السفه وسرعة الغضب، والانهماك في الشهوات، واتباع اللذات، فإذا استقبح ذلك أحجم عنه، وعدل إلى ما يقتضيه الرأي والفكر، وإن لم يرتدع بالكلية، فلا بد أن يؤثر ذلك فيه، فيقتصر عما يريد الشروع فيه.

وملاك الأمر في «تهذيب الأخلاق» وضبط النفس الشهوانية والنفس الغضبية هي تقوية النفس الناطقة فإن بهذه النفس تكون جميع السياسات.

وهذه النفس إذا قويت متمكنة من صاحبها أمكنه أن يسوس بها قوتيه الباقيتين، ويكف نفسه عن جميع القبائح، ويتبع أبداً مكارم الأخلاق، وإذا لم تكن هذه النفس قوية في صاحبها، وكانت مقهورة خافتة، فأول ما ينبغي أن يعتمده في سياسة أخلاقه أن يروض هذه ويقويها، وتقوية هذه النفس إنما يكون بالعلوم العقلية، فإنه إذا نظر في العلوم العقلية ودقق النظر فيها ودرس كتب الأخلاق والسياسة، وداوم عليها تيقظت نفسه، وتنبهت، وانتعشت من خمولها، وأحست بفضائلها، وأنفت من رذائلها، وذلك أن هذه إنما تضعف وتخفت إذا عدمت الفضائل والمناقب، واستولت عليها الرذائل، فإذا اقتنت الفضائل، واكتسبت الآداب، تيقظت من غشيتها، وثارت من سكرتها، وقويت بعد ضعفها.

وفضائل هذه النفس هي: العلوم العقلية، وخاصة ما دقّ منها، فإذا ارتاض الإنسان بالعلوم العقلية شرفت نفسه، وعظمت همته، وقويت فكرته، وتمكن من نفسه، وتملك أخلاقه، وقدر على إصلاحها، وانقاد له طبعه، وسهل عليه تهذيبه، وأذعنت له القوة الغضبية والشهوانية، وهان عليه قمعها وتذليلها.

فأول ما ينبغي أن يبتدىء به من يحب سياسة أخلاقه: النظر في كتب الأخلاق، والسياسة، ثم الارتياض بعلوم الحقائق، فإن أشرف ما تكون النفس إذا أدركت حقائق الأمور، وأشرفت على هيئات الموجودات.

وإذا شرفت نفس الإنسان وعلت همته: ترقى إلى مراتب أهل الفضل.

ومما يصلح النفس الناطقة ويقويها أيضاً: مجالسة أهل العلم، ومخالطتهم، والاقتداء بأخلاقهم وعاداتهم، وخاصة أصحاب علوم الحقائق، والمتيقظين منهم، المستعملين في جميع أمورهم ما تقتضيه علومهم، وتوحيه عقولهم.

فأما تمييز عادات النفس الناطقة، واستعمال ما حسن منها وإطراح ما قبح، فذلك إنما يمكن ويسهل أيضاً إذا راض نفسه الناطقة فإن النفس الناطقة إذا ارتاضت بالعلوم الحقيقية، وتيقظت، وشرفت، أنفت من العادات المستقبحة وتنزهت عن التدنس بها، فيهون حينئذ على صاحبها تجنب ما يكره من عاداتها، ويتغلب عليه استحسان الأخلاق الجميلة، والتخلق بها، وقد تبين من جميع ما ذكرنا: طريق الارتياض بالأخلاق المحمودة: المرضي منها، والتصنع لاعتيادها، واتباع المحمود المرضي منها، واجتناب المذموم والمستقبح.

وتذليل قوة الشهوة الغضبية، وضبطها وقهرها هو: إصلاح النفس الناطقة وتقويتها، وتحليتها بالفضائل والآداب والمحاسن، فإن ذلك هو آلة السياسة، ومركب الرياضة، ومن لم يتمكن من اكتساب العلوم العقلية والإمعان فيها، أو تعذر عليه ذلك، فليبذل جهده في تدقيق الفكر، ومجاهدة النفس، وتمييز ما بين عاداته القبيحة والجميلة، وينظر أيها أجدى عليه، وأيها أنفع له، وأيها أحمد عاقبة وأبقى على الأيام، فإنه إذا صدق نفسه، وجد شهواته ولذاته إنما هي ملذة وقت استعمالها فقط، فأما بعد مفارقتها، فليست باقية عليه، ولا نافعة له ويجد عارها وشينها باقياً على الدهر، متداولاً بين الناس يعاب به ويزري عليه بقبحه.

وكذلك شدة الغضب، والتسرع إلى الانتقام والسب، والفحش، فإنه إذا انجلت غمرته، وسكنت سورته، وتأمل أمر ما فعله: وجده قبيحاً، ولم يجده مجدياً ولا مفيداً.

وقد صار ما فعله عند الغضب نقيصة يوسم بها، ومعرة يسب بها.

وربما ارتكب في الغضب جنايات، يعاقب عليها، ويؤدب من أجلها.

وكذلك العادات المكروهة من عادات النفس الناطقة أيضاً يجدها غير نافعة ولا مجدية.

وذلك أن: الحسد، والحقد، والخبث، وأمثال هذه: لا ينتفع بها صاحبها، وإن انتفع بالخبث والشر، فشر منفعة.

ومع ذلك هو: ضار له، فإن من تشرر: قصده الناس واستعدوا لأذيته وتصدُّوا للإضرار به، وتوقوه، واحترزوا منه، وكرهوا نفعه، وقصروا وجوه الخير عنه، واجتهدوا في ذلك.

وما أسوأ حال من هذه صفته، فمستعمل الشر والخبث سيئي الحال، يضره شره أكثر مما ينفعه.

فإذا حاسب الإنسان نفسه، وأجال فكره، وتمييزه: علم أن الضرر في مساوىء الأخلاق أكثر من النفع، وأن الذي يعده منها نفعاً ليس هو بنفع على الحقيقة، وهو يسير جداً غير باق، ولا مستمر.

فإن هذا اليسير الذي يعده نفعاً لا يفي بالضرر الكثير، والعار الدائم المتصل.

ويعلم أيضاً أن: الشر والخبيث يجلبان عليه الشر، ويوحشان منه الناس.

فإذا أدام ذلك، وأكثر منه، قوي في نفسه اتباع محاسن الأخلاق، وسهل عليه اطراح مساوئها ومقابحها، وغلب عليه الخير والسداد، وفرغ من العيب والعار.

فإذا فعل ذلك دائماً: لم يلبث أن يصلح أخلاقه، ويحسن طريقته، ويهذب شمائله، ويلحق برتبة أهل الفضل، ويتميز عن أهل الدنس والنقص.

وينبغي لمن أراد سياسة أخلاقه، أن يجعل غرضه من كل فضيلة: غايتها ونهايتها، ولا يقنع منها بما دون الغاية، ولا يرضى إلاَّ بأعلى درجة، فإنه إذا جعل ذلك غرضه، كان حرياً أن يتوسط في الفضائل، ويبلغ منها رتبة مرضية؛ إن فاتته الدرجة العالية.

فأما إن قنع بالتوسط: لم يأمن أن يقصر عن بلوغه، فيبقى في أدون المراتب، ويفوته المطلوب، فلا يطمع أبداً في التمام.

فهذا الذي ذكرنا، هو طريق الارتياض بمكارم الأخلاق، ومنهج التدرج في محمود العادات.

فإذا أخذ الإنسان نفسه به، وأكثر مراعاته، وتعهده، صار له أمر الفضائل ديدناً، والمحاسن له خلقاً وطبعاً.

وقد بقي علينا أن نذكر:

في أوصاف الإنسان التام الجامع لمحاسن الأخلاق وطريقته التي بها يصل إلى التمام

فنقول: الإنسان التام، هو الذي لم تفته فضيلة، ولم تشنه رذيلة، وهذا الحد قلّما ينتهي إليه إنسان.

وإذا انتهى الإنسان إلى هذا الحد، كان بالملائكة أشبه منه بالناس.

فإن الإنسان مضروب بأنواع النقص، مستولٍ عليه وعلى طبعه ضروب الشر، فقلما يخلص من جميعها حتى تسلم نفسه من كل عيب ومنقصة، ويحيط بكل فضيلة ومنقبة.

إلاّ أن التمام ـ وإن كان عزيزاً بعيد التناول ـ فإنه ممكن، وهو غاية ما ينتهي إليه الإنسان، ونهاية ما هو منتهٍ له.

وإذا صدقت عزيمة الإنسان وأعطى الاجتهاد حقه كان قميناً[1] بأن ينتهي إلى غايته التي هي منتهى له، ويصل إلى بغيته التي تسمو نفسه إليها.

فأما تفصيل أوصاف الإنسان التام، فهو: أن يكون متفقداً لجميع أخلاقه، متيقظاً لجميع معايبه، متحرزاً من دخول كل نقص عليه، مستعملاً لكل فضيلة، مجتهداً في بلوغ الغاية، عاشقاً لصورة الكمال، ملتذاً بمحاسن الأخلاق، متيقظاً لمذموم العادات، معتنياً بتهذيب نفسه، غير مستكثر ما يقتنيه من الفضائل، مستعظماً لليسير من الرذائل، مستصغراً للرتبة العليا، مستحقراً للغاية القصوى، يرى التمام دون محله، والكمال أقل أوصافه.

فأما الطريقة التي توصله إلى التمام، وتحفظ عليه الكمال فهي: أن يصرف عنايته إلى النظر في العلوم الحقيقية، ويجعل غرضه الإحاطة بماهيات الأمور

(١) قمين: حَرِيّ. والقمين السريع والقريب. وقمن وقمين: خليق وجدير.

الموجودة، وكشف عللها وأسبابها، وتفقد غاياتها، ولا يقف عند غاية من علمه إلاّ ورنا[1] بطرفه إلى ما فوق تلك الغاية، ويجعل شعاره ـ ليله ونهاره ـ قراءة كتب الأخلاق، وتصفح كتب السير، والسياسات، وأخذ نفسه باستعمال ما أمر أهل الفضل باستعماله، وأشار المتقدمون من الحكماء باعتياده، وينشد أيضاً طرفاً من أدب البيان والبلاغة، ويتحلّى بشيء من الفصاحة، والخطابة، ويغشى أبداً مجالس أهل العلم والحكمة، ويعاشر دائماً أهل الوقار والعفة.

هذا إن كان رعية وسوقه.

فإن كان ملكاً ورئيساً، فينبغي أن يجعل جلساءه ومنادميه وغاشته والمطيفين به، كل من كان معروفاً بالخير والسداد، موصوفاً بالأدب والوقار، مخصصاً بالعلم والحكمة، محققاً بالفهم والفطنة، ويقرب مجالس أهل العلم، وينشطهم، ويكثر مجالستهم والأنس بهم، ويجعل تفرجه وتفكهه مذاكرتهم في العلم وفنونه، وسياسة الملك ورسومه، وأخبار الحكماء وأخلاقهم، وسير الملوك الأخيار وعاداتهم.

وينبغي للإنسان التام، ولمن طلب طريقته التي بها يصل إلى التمام: أن يجعل لشهواته ولذاته قانوناً راتباً، يقصد فيه الاعتدال، ويجتنب السرف والإفراط، ويعتمد من الشهوات واللذات المعتمدة له: ما كان من الوجوه المرتضاة المستحسنة، ويأخذ نفسه بذلك، ويحض عنها الطبع، ويهجر أصحاب اللذات ومعاشرتهم، وينقبض عن الخلفاء ومخالطتهم، ويشعر نفسه أن الشهوة عدو مكاشح[2]، وخصم مكافح، يريد أبداً ضرره وأذيته، ويعتمد شينه وفضيحته، فيناصب شهوته بالعداوة، ويكاشفها بالمعاندة، ويقمع أبداً سورتها، ويكسر دائماً حدتها، ويقهر سطوتها، ويذلل ـ على التدريج ـ عزتها، ويسكن ـ على الترتيب ـ فورتها.

فإنه إذا فعل ذلك: كان خليقاً أن يملك نفسه، وتنقاد له شهوته، وتنطبع بالعفة، وتألف حسن السيرة.

ومتى أرخى لشهوته عنانها، وسمح لها في مرادها، وأهمل سياستها ومراعاتها، واستطالت وشمخت، ولم تلبث أن توهن صاحبها، وتقوده، وتحمله على ما يسوؤه، ويعرّه[3] فيصير بذلك بعيداً من التمام، غير طامع في الكمال.

---

(١) رنا إليه: كجعل: نظر. والرُّنُوّ: إدامة النظر مع سكون الطرف. ورنا له: أدام النظر.

(٢) الكاشح: المتولي عنك بوده: الذي يضمر لك العداوة، ويقال طوى فلان كشحه إذا قطعك وعاداك.

(٣) عَرّه: ساءه، وعرّه بشر: لَطَخه به. وعَرّه بشرّ: ظلمه وسبّه وأخذ ماله، فهو معرور.

وينبغي لمن يطلب التمام، أن يعلم أنه لا سبيل له إلى بلوغ غرضه ما دامت اللذة عنده مستحسنة، والشهوة مستحبة، وهذه الحال صعبة جداً، متعسرة على طالبها، بعيدة المأخذ، وهي على الملوك والرؤساء أصعب وأبعد، لأن الملوك والرؤساء أقدر على اللذات، وأشد تمكناً، والشهوات واللذات لديهم معروضة، ولهم سجية وعادة، فمفارقتها عليهم متعذرة، وإعراضهم عنها كالشيء الممتنع، خاصة لمن قد نشأ على الانهماك فيها، والتوفر عليها.

إلاّ أن الملوك ـ وإن كانوا أقدر على اللذات وأكثر اعتياداً لها ـ فهم أعظم همماً، وأعز نفوساً، والمحصل منهم إذا سمت نفسه إلى التمام الإنساني، واشتاقت إلى الرئاسة الحقيقية، علم أن الملك أحق أن يكون أتم أهل زمانه، وأفضل أعوانه ورعيته، فيهون عليه مفارقة الشهوات، وهجر اللذات الدنية.

وينبغي لمن رغب في سياسة أخلاقه، وسلك طريق الاعتدال في الشهوات، أن يجعل لها قانوناً يقتصر عليه في المآكل والمشارب، مقروناً بالكرم، وهو أن لا يستبد بالمأكل والمشرب وحده، بل يقصد أن يشرك في ما له من ذلك إخوانه وأوداءه، إن كان رعية وسوقة.

وإن كان ملكاً رئيساً فيجمع عليه حاشيته وندماءه، ويعم به أصحابه وأعوانه، ويتفقد بفضلاته أهل الفقر والمسكنة، وخصاة من سبقت له معرفة به، أو تقدمت له خدمة، فيصرف إلى حاجاتهم من عنايته، فإن اعتداد هؤلاء بما يصل إليهم من بره، أكثر من اعتداد حاشيته وأصحابه، وليظهر لمن يجتمع على مائدته، وعلى طعامه وشرابه، من إخوانه وأصدقائه، ورعيته وندمائه ـ وإن كان ملكاً ـ أن جمعه لهم للأنس بهم، والسرور بمعاشرتهم، لا ليكرمهم بطعامه وشرابه، ولا أن لذلك قدراً يعتد به.

ويحترز ـ كل الاحتراز ـ من أن يبدو منه امتنان بالطعام والشراب، أو تبجح به، فإن ذلك يزري بفاعله، ويغض منه، ويوحش من يغشاه، ويقطعهم عنه.

وقد يستحسن من الإنسان أيضاً ـ إذا كان مقلاً ـ أن يواسي بطعامه إخوانه، وإن كان محتاجاً إليه، ويستحسن منه أيضاً أن يواسي به الفقراء والضعفاء، وقد يستحسن منه أيضاً أكثر من ذلك، بأن يؤثر الإنسان بطعامه وشرابه غيره، وإن كان شديد الاضطرار إليه، وكان لا يقدر على غيره.

وينبغي أيضاً لمن طلب السياسة التامة: أن يستهين بالمال ويحتقره وينظر إليه بالعين التي يستحقها.

فإن المال: إنما يراد لغيره، وليس هو مطلوباً لذاته، فإنه في نفسه غير نافع، وإنما الانتفاع بالأغراض التي تنال به.

فالمال آلة تنال بها الأغراض، فلا يجب أن يعتقد أن اقتناءه وإدخاره مفيد، فإذا أدخر وحرص عليه: لم ينل صاحبه شيئاً من الأغراض التي هو بالحقيقة محتاج إليها.

فالمال هو مطلوب لغيره، فينبغي للسديد الرأي، العالي الهمة، أن يزنه بوزنه، فيكسبه من وجهه، ويفرقه في وجهه، ويكون مع ذلك، غير متوان في اكتسابه، ولا مقدم في طلبه، لأن عدم المال يضطره إلى التواضع لمن هو دونه، إذا وجد عنده حاجته، ووجود المال يغنيه عن: من هو فوقه، وإن دنت منزلته.

ويكون ـ أيضاً ـ غير مدخره ولا متمسك به، بل يصرفه في حاجاته، وينفقه في مهماته، ويقصد الاعتدال في تفريقه، ويحذر من السرف والتبذير في تخريجه، ولا يمنع حقاً يجب عليه، ولا يصرفه في شيء لا يحب ولا يشكر عليه.

وإذا فرغ من حاجته، واستكفى من نفقاته، وسد خلله عاد إلى النظر في أمره، فإن كان بقي من ماله بقية فاضلة عن مهم أغراضه: أخرج منها قسطاً، فجعله عنده يستظهر به لشدة، ويعده لنائبة، ثم عمد إلى الباقي وفرقه في ذوي الحاجة، من أهله، وأقاربه، وإخوانه، وأهل مودته، وجعل فيه قسطاً للضعفاء والمساكين، وأهل الفاقة المستورين، وجعل اهتمامه بإفضاله وبره: أكثر من اهتمامه بضروراته، فإن الضرورات تقوده كرهاً إليها، وأكثر النوافل متى لم يهم بها ويشعر نفسه ألزامها: لم يسهل عليه فعلها، لأن ضعف النفس وسوء الظن يصرفانه عنها، وإن لم يكن له جاذب من نفسه، وداع قوي من همته، لم يقدم عليها، وغلب عليه التواني، فإذا توانى عن البر والفضل: كان شحيحاً دنياً، وليس بتام.

بل ليس بالحقيقة إنساناً من لم يكن له بر يعرف، ولم تنتشر له أفعال توصف.

هذا إن كان من أوساط الناس.

فأما الملوك والرؤساء، فإنهم أحق بهذه السياسة، ويجب أن يكونوا بذلك أشد عناية، فيجبوا الأموال من حقها وواجبها، ويصرفوا منها في نفقاتهم ومؤوناتهم، وأرزاق جندهم، وأصحابهم تدر الكفاية، من غير سرف ولا تقتير، ويعدوا منها شطراً لخوف عاقبة، ويصرفوا الباقي في طريق الكرم والجود، ووجوه الخير والبر، فيعطوا أهل العلم على طبقاتهم، ويجعلوا لهم رواتب من خواص أموالهم، ويدفعوا لمن هو مثابر على العلم والأدب، ويبروا الضعفاء والمساكين، ويتفقدوا الغرباء، ويهتموا بالزهّاد وأهل النسك، ويخصوهم بقسط من إفضالهم وإنعامهم، ويعتنوا بالصغير والكبير، وينفقوا في مصالحهم شطراً من أموالهم، فإن الملوك أولى بالكرم من الرعية، وأحق بالجود من العامة.

وقد يستحسن أيضاً من المملقين[١] والمقترين: المواساة بالمال والإيثار به، وإن كانوا محتاجين إليه، وكلما كانت حاجتهم أشد، كان ذلك الفعل حسناً، وهذه الحال مستحسنة، إذا رأى الرجل أخاً من إخوانه، أو صديقاً يختص به، وقد دعته الحاجة إلى ما لا يقدر عليه لإصلاح شيء من شأنه، أو لدفع محنة نزلت به، وكان هو قادراً على ذلك القدر من المال، فيبتدي بإسعافه، عفواً من غير مسألة.

وإن فعل هذا الفعل مع الغريب الذي لا يعرفه، ولم تسبق له حرمة ولا مودة، كان جميلاً مستحسناً.

وينبغي لمحب الكمال: أن يشعر نفسه أن الغضبان بمنزلة البهائم والسباع: يفعل ما يفعله من غير علم، ولا روية.

فإذا جرى بينه وبين غيره محاورة: أدّت إلى أن يغضب خصمه ويتسفه عليه اعتقد فيه أنه في تلك الحالة بمنزلة البهائم والسباع، فيمسك عن مقابلته، ويحجم عن الاقتصاص منه، ألا يعلم أن الكلب لو نبح عليه، لم يكن يستحسن مقابلته على نبحه؟ وكذلك البهيمة لو رمحته، لم يستحسن عقوبتها؟ لأنها غير عالمة بما تصنعه، إلاّ أن يكون جاهلاً، فإن من السفهاء من يغضب على البهيمة إذا رمحته، ويوجعها ضرباً إذا آذته، وربما عثر السفيه فشتم موضع عثرته، ورفسه برجله.

فأما الحليم الوقور، فلا يستحسن شيئاً من ذلك، وإذا استشعر في خصمه أنه بمنزلة البهائم: صار هذا الاستشعار منه طريقاً إلى ضبط النفس الغضبية، وزمها وأن أذاه مؤذٍ بغير سفه. فيؤدي ذلك الأذى إلى حال يغضبه، أنف أيضاً من الغضب، مع استشعاره أن الغضبان والبهيمة سواء، فيعدل حينئذ إلى مقابلة مؤذية بما يقتضيه الرأي، من حيث لا يظهر فيه غضب ولا سفه.

وينبغي لمحب الكمال أيضاً أن يعوّد نفسه محبة الناس أجمع، والتودد إليهم، والتحنن عليهم، والرأفة والرحمة بهم، فإن الناس قبيل واحد، متناسبون، تجمعهم الإنسانية، وحلية القوة الإلهية هي في جميعهم، وفي كل واحد منهم، وهي النفس العاقلة، وبهذه النفس صار الإنسان إنساناً، وهي أشرف جزئي الإنسان: الذين هما: النفس والجسد، والإنسان بالحقيقة هو: النفس العاقلة، وهي جوهر واحد في جميع الناس، وكلهم بالحقيقة شيء واحد، والأشخاص كثيرون.

---

(١) يقال: أملق الرجل من المال أي فقير منه، والإملاق الإنفاق، يقال: أملق ما معه إملاقاً. والإملاق: كثرة إنفاق المال وتبذيره حتى يورث حاجة. وقيل: المملق: الذي لا شيء له.

وإذا كانت نفوسهم واحدة، والمودة إنما تكون بالنفس، فواجب أن يكونوا كلهم متحابين متوادين، وذلك في الناس طبيعة، لو لم تقدهم النفس الغضبية، فإن هذه النفس تحبّب لصاحبها الترأس، فتقود صاحبها إلى الكبر والإعجاب والتسلط على المتضعف، واستحقار الصغير، وحسد الغني وذي الفضل، فتنشأ من أهل هذه الأسباب: العداوات، وتتأكد البغضاء بينهم، فإذا ضبط الإنسان نفسه الغضبية، وانقاد لنفسه العاقلة صار الناس كلهم له أحباباً، وإخواناً.

وإذا أعمل الإنسان فكره: رأى ذلك واجباً، لأن الناس إما أن يكونوا فضلاء، أو نقصاء.

فالفضلاء تجب عليه محبتهم لموضع فضلهم، والنقصاء تجب عليه رحمتهم لموضع نقصهم.

فيحق لمحب الكمال: أن يكون محباً لجميع الناس، متحنناً عليهم رؤوفاً بهم، وخاصة الملك والرئيس، فإن الملك ليس يكون ملكاً ما لم يكن محباً لرعيته، رؤوفاً بهم، وذلك أن الملك ورعيته بمنزلة رب الدار، وأهل داره، وما أقبح رب الدار أن يبغض أهل داره، ولا يتحنن عليهم ويحب مصالحهم.

وينبغي لمحب الكمال أن يجعل همته فعل الخير مع جميع الناس، وإنفاق ما يفضل من ماله فيما يبقى له الذكر الجميل بعد موته، ويتحرز من فعل الشر، فإنه إذا حاسب نفسه؛ علم أن من فعل الشر فإنه يفعله لخير لا يعتقد أنه يصل إليه، وربما كان غالطاً.

وإذا علم أن الأمر على هذه الصفة كان واجباً عليه أن يطلب الخير الذي يرومه من طريق غير طريق التشرر، إذا كان هو الغرض المطلوب: لا فعل الشر.

فأما إن كان تشرره يلحقه أسفاً وغيظاً، فليعلم أنه إذا سكن غيظه، وجد ذلك المقصود بالشر: غير مستحق لذلك الفعل، ففعل الشر قبيح، وخاصة بمن قد جمع الفضائل.

إلاَّ أن يكون ذلك الشر تأديباً على جرم، واقتصاصاً من جانٍ، فإن هذه الحال مستحبة محمودة، بل لا يعد شراً، لأن ذلك الشر إنما يصل إلى الجاني فقط، ويكون منه نفع عام لجميع الناس، بأن يرتدع أمثاله من الجناة، وتكون المنفعة فيه أكثر، من أجل ذلك لا يعد شراً.

وإذا اعتمد الإنسان فعل الخير، وألفه، وتجنب الشر، واستوحش منه: لأنف من الأخلاق المكروهة، التي تعد شراً كالحسد، والحقد، والخبث، والخديعة، والنميمة والعيبة، والواقعية، وأمثال هذه العادات.

وإذا فكر العاقل المحصل فيها: علم أنها غير مجدية عليه نفعاً، وهي مع ذل تشينه وتقبح صورته.

وإذا كان محباً للتمام، مستشرفاً للكمال، كان واجباً عليه تجنب هذه الأخلاق.

وينبغي لمحب الكمال: أن يعتقد أنه ليس شيء من العيوب والقبائح خافياً عن الناس، وإن اجتهد صاحبها في سترها، فلا يطمع نفسه في ارتكاب فعل قبيح يظن أنه ينكتم عن الناس، حتى لا يقف عليه أحد.

ويجب أن يعلم أن الناس بالطبع موكلون بتتبع عيوب الناس: وتعييرهم بها، وذلك في الناس غريزة، والسبب فيه أن الإنسان ما لم يبلغ التمام، فليس يخلو من تقصير يعاب به، ويسوؤه أن يكون غيره أفضل منه، فهو يسر أن يكون الناس كلهم نقصاء، ليساووه في النقص، ويخلوا دونه، فهو أبداً يتتبع معايب الناس، ويعيرهم بها، ليرى الناس أنه أفضل ممن فيه ذلك العيب، ويشعر نفسه أيضاً ذلك، لتطيب بما فيها من العيوب.

فليس شيء من العيوب بخاف عن الناس، وإن اعتمد ستره.

وقد يظن كثير من الملوك والرؤساء: أن عيوبهم مستورة عن الناس، غير بادية، وذلك لموضع هيبتهم، وعظم سطوتهم، يستشعرون أن حاشيتهم وخواصهم لا يجسرون على إظهار أسرارهم إن وقفوا على شيء منها، وهذا نهاية الغلط، لأن خواص الملك وحاشيته، كما أنهم عنده ثقاة أمناء، كذلك لكل واحد منهم خاص وثقة يخرج إليه بأسراره، والذي لا يستر أسرار نفسه، فمحال أن يستر أسراره غيره.

وهذا الحال: طريقة إلى انتشار معايب الملوك، الذين يظنون أنها مستورة.

والعلة في ظنهم أنها مستورة هو: أنهم لا يسمعون أحداً يذكرها، ولا أحداً يتنصح إليهم بها، فيظنون أنها خفية.

فإذا أحبّ الإنسان أن يعلم أن عيوبه غير خافية، فليعد إلى نفسه، ولينظر: هل يعرف لأحد عيباً كان يستره ويخفيه، فإنه يجد للناس عنده عيوباً كثيرة قد اجتهدوا في سترها، وحرصوا على صونها.

ومنهم من يظن أنها خفية.

ومنهم من يعلم: أنها قد انتشرت بعد الستر.

فإذا علم أنه عارف بأسرار كثير من الناس كانت مستورة، فمن الواجب أن يعتقد أن عيبه غير خاف، ولا مُنْكَتِم، وأن الناس يعرفون من عيوبه أكثر مما يعرف من عيوبهم.

فينبغي لمحب الكمال: أن يعتقد أن عيوبه ظاهرة، وإن اجتهد في إخفائها، وليس بتام من عرف له عيب، ولا طريق إلى التمام إلاً باجتناب العيوب بالكلية، والتمسك بالفضائل في سائر الأمور.

وهذه الرتبة غاية تمام الإنسانية، ونهاية الفضيلة البشرية، وواجب على كل إنسان: الاجتهاد في بلوغها، واستفراغ الوسع في الوصول إليها، لأن التمام مطلوب لذاته، والنقص مكروه لعينه.

وأحق الناس بطلب هذه الرتبة، وأولاهم بالتحمل لبلوغ هذه المنزلة: الملوك والرؤساء، وأشراف الناس، وأعظمهم قدراً.

وما أقبح بالشريف العظيم أن يكون ناقصاً.

فالملوك إذاً ينبغي أن يكون أشد الناس حرصاً على بلوغ الكمال، لأن الكامل من الناس، الجامع للفضائل: مترتب بالطبع على الناقص من الناس.

فالإنسان التام: رئيس بالطبع.

وإذا كان الملك تاماً جامعاً لمحاسن الأخلاق، محيطاً بجميع المناقب، كان ملكاً بالطبع.

وإذا كان ناقصاً كان ملكاً بالقهر.

وما أولى بالملك: أن يرغب في الرئاسة الحقيقية التي لا تكون بالقهر والشرف الذاتي، لا ما هو بالوضع.

فالواجب: أن يصرف الملك همته إلى اكتساب الفضائل، واقتناء المحاسن، ويطلب الغاية في المكارم، ويستصغر الكبير منها، حتى يحوز جميعها، ولا يرضى بالنهاية، حتى يزيد عليها.

فإنه إن رضي برتبة فوقها رتبة لم يصل أبداً إلى التمام.

وإن أبعد الناس من التمام: من رضي لنفسه بالنقصان.

فإذا طلب الملك الكمال، فأول ما يجب أن يعتاد: عظم الهمة، فإن عظم الهمة يصغر في عينه كل رذيلة، ويحسن له كل فضيلة.

وإذا عظمت همة الملك سلم من الإعجاب بملكه، ورأى نفسه وهمته: أعظم قدراً من أن يستكبر ذلك الملك.

وإذا احتقر الملك ملكه الذي به عزه وعظمته، طلب لنفسه ما يعظمها بالحقيقة، وليس يعظم النفس إلاّ الفضائل.

ثم: ينبغي له أن يكره الملق، ويبغض المتملقين وينهاهم عن تلقيه به.

وملاك أمره: أن يتعرف عيوبه حتى يمكنه توقيها والتحرز منها، وهذا في الملوك صعب، لأن الإنسان بالطبع يخفى عليه كثير من عيوبه.

فالذي يخفى على الملوك أكثر لإعجابهم بمحاسنهم، وعظم مرتبتهم.

وأيضاً فإن الرعية والسوقة، يبكتون[١] بعيوبهم، ويعيرون بها، فهم يعرفونها.

والملوك: لا يجسر أحد على تبكيتهم، فلا يقدم أحد على تبكيتهم على عيوبهم، لأن الناس أجمع: يقصدون التقرب إلى الملوك بملقهم، فلا يقولون لهم إلاّ ما يحبون، لينالوا الحظوة عندهم.

فعيوب الملوك أبداً خفية عنهم.

وينبغي للملك إذا أحبّ أن يتنزه من العيوب، ويتطهر من دنسها: أن يتقدم إلى خواصه وثقاته، ومن كان يسكن إلى عقله وفطنته من خدمه وحاشيته، فيأمرهم أن يتفقدوا عيوبه، ونقائصه، ويطلعوه عليها، ويعلموه بها.

وينبغي له أيضاً: أن يتلقى من يهدي إليه شيئاً من عيوبه بالبشر والقبول، ويظهر له الفرح والسرور بما أطلعه عليه.

بل المستحسن منه: أن يجيز الذي يوافقه على عيوبه أكثر مما يجيز المادح له على نقصه، ويتحمل لومته على فعله، فإنه إذا لزم هذه الطريقة، وعرف بها: أسرع أصحابه وخواصه إلى تنبيهه على عيوبه، وإذا نبه على ما فيه من النقص: أنف منه،

---

(١) بكت: بَكَتَهُ يَبْكُتُهُ بكْتاً، وبَكَّتَه: ضربه بالسيف والعصا ونحوهما. والتَّبكيت: كالتقريع والتَّعنيف.

واستشعر أولاً أن سيعيرونه به، ويصغرونه من أجله، ويلزمه حينئذ أن يأخذ نفسه بالتنزه من العيوب، ويقهرها على التخلص من دنسها، فإذا فعل ذلك، وتوفر على اقتناء الفضائل، وألزم نفسه التخلص بالمحاسن، ولم يرض من منقبة إلاّ بغايتها، ولم يقف واجتهد فيما يحسن سياسة نفسه عاجلاً ويبقى له الذكر الجميل آجلاً، لم يلبث أن يبلغ الغاية من التمام، ويرتقي إلى النهاية من الكمال، فيحوز السعادة والإنسانية والرئاسة الحقيقية، ويبقى له حسن الثناء مؤبداً وجميل الذكر مخلداً.

* * *

فقد أتينا على صفة الإنسان التام الجامع لمحاسن الأخلاق والطريق التي تؤديه إلى هذه الرتبة، وتحفظ عليه هذه المنزلة.

وقدّمنا: ما يجب تقديمه من «سياسة الأخلاق وتهذيب النفوس»: فما أولى من نظر في هذا القول وتصفحه، وفهم مضمونه وتدبره: أن يأخذ نفسه باستعمال ما بين فصوله، ويسوس أخلاقه مما يتطرق إلى الذي قنن في تضاعيفه، ويجتهد كل الاجتهاد في تكميل نفسه، ويستغرق غاية الوسع في طلب تمامه، فما أقبح النقص بالقادر على التمام، والعجز من المستعد لنيل الكمال.

وهذا حين نختم القول بـ «تهذيب الأخلاق».

والحمد لله.

وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه.

مراتب علوم الوهب

تأليف

الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن محمد

ابن عربي الحاتمي

المتوفى ٦٣٨هـ

اعتنى به

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ربِّ يسر برحمتك
وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً

قال نفع الله الكافة ببركاته:

الحمد لله منقّح الفهوم، وفاتح مغالق العلوم عن السرّ المكتوم، المنزل في المقام القديم إلى حضرة التعليم بالقدر المعلوم، والقدر المحتوم، فهو الرزق المقسوم، بلسان التفهيم، على قوالب الجسوم، وهياكل الرسوم مساقط النجوم.

فمنها الخالص العميم، ومنها الممزوج بالتسنيم، ومنها ما يصلح للنديم، ومنها ما يودع في الضروع للوليّ الحميم، والنبي الكريم، ومنها ما تحمله النحل للنظير والقسيم.

أحمده حمد من آمن به وصلّى، وسبق ما صلّى فهو العرش العظيم، والصلاة على المنعوت بالرؤوف الرحيم، والرسول العلاّم الحكيم، والسلام الطيب المبارك الجسيم وعلى آله في الخصوص والعموم.

اعلم

أيها السالك بالهمّة العليا، ومزاحم الروحانيات العُلَى أن العلوم وإن كثُرت أصنافها بحسب معلوماتها فهي ترجع إلى ضربين:

علوم تنتج.

وعلوم لا تنتج.

* فالعلم الذي ينتج أصلاً فهو العلم بالذات المقدسة، التي تجل وتتعاظم عن الإدراك، بشبكة الأفكار، وشرك العقول والاعتبار. علمنا بها علم عيْن عليه رداءُ صون لا يتمثل فينقال، بل هو التنزيه على الإطلاق. لا يتنزه بالسلوب كما لا يتعين

بالإضافات، حجابه الألوهية المدركة بالدلائل العقلية، والبراهين الوضعية، فهذا هو الريح العقيم، لا يدل على غير لعدم المناسبة من كل وجه، فهو الواحد بكل معنى. ليس له وجوه، ولا يترتب عليه أحكام، فأحرى أن تقوم به صفة، أو يجري عليه لسان غيب.

* وأمّا العلوم التي تنتج فعلوم الأدلّة. تنتج مدلولاتها. وتلك المدلولات أدلّة يُتوصّل بها إلى مدلولات أُخر. هكذا صاعداً إلى العلم بالإله من كونه إلهاً، لا من كونه ذاتاً، فيصير هذا العلم أيضاً دليلاً على العلم بأسرار الكون، التي لا تستقل العقول بإدراكها، وربما لا تخطر على فكرها، وإن لم تزل عن أحكامها، وإنها من قبيل الإمكان. ولكن لا ينتج هذا العلم الإلهي شيئاً، ولا يكون دليلاً أبداً حتى يكون للعالم به لساناً، وسمعاً، وبصراً، ويداً، ورجلاً، ومعنى، ورسماً، فيكون العالم به كأنه هو وما هو هو. ومهما لم يتحقق العبد بهذا المقام، فأنّى له بدرك الحقائق. والعوائق موانع، والعلائق دوافع. فنسأل الله أن يجعل لنا كل عائقة دليلاً، وكل علاقة برهاناً. ولا يقطعها عنّا قبل معرفتنا بوجه الحق منها، فنكون من الجاهلين.

والطريق إلى هذه الحالة ملازمة نوافل الخيرات مطلقاً كما قال تعالى في الخبر الصحيح، باللسان المترجم الفصيح:

«ولا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أُحِبَّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به. . .»[1] الحديث بكماله.

هذا ما تُعطيه محبة النوافل المبنيَّة على عبودية الاختيار. فانظر مع هذا الحجاب ما أنتج له من الأسرار، وما تجلّى له من خالص الأنوار، فكيف ما تعطيه محبة الفرائض وعبودية الاضطرار. هم أهل السُّبُحات المحرقة، والمقامات المحققة، هم عكس المقام الأول، وفي صورتهم يكون التنزل، فهم سمع الحق الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي يتكلم به، فيهم يسمع، وبهم يبصر، وبهم يبطش إلى غير ذلك، هذا لسان الخصوص، كما هو لسان العموم في حقه، فيهم يمطر، وبهم يرزق، وبهم ينصر. فهذا مدرك الإيمان وذلك مدرك العيان، فلا أمر يتردد بين

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب من جاهد نفسه في طاعة الله، حديث رقم (٦١٣٥) [ج٥ ص٢٣٨٤]، وابن حبان في صحيحه، باب ذكر الإخبار عما يجب على المرء من الثقة بالله تعالى. . .، حديث رقم (٣٤٧) [ج٢ ص٥٨] ورواه غيرهما.

الردا والمرتدى فيظهر هذا بصورة هذا ويظهر هذا بصورة هذا دوراً مقدساً مُنَزَّهاً حقيقة في مقامها لا تختل ولا ينحلُّ نظامها. لكن ليست بالغاية فإنها نتائج التكليف. والغاية لا تُنال بالسعايات، وقد تقدم ذكرها، فهذه علوم الإنتاج.

وهي تنقسم إلى أقسام جاءت بها الأمثلة القرآنية، والتشبيهات الفرقانية بلسان النور، فتقررت في الصدور المشروحة، والقلوب المفتّحة أبوابها، فإذا نزلت هذه العلوم في الصورة المائية. فإذا كان الماء خالصاً فهو العلم العقيم.

وإن كان ممتزجاً أو خالصاً بعد المزج بما طرأ عليه التردد في أطوار الاستحالات فإنه ينتج. فإن كان من الخالص بعد المزج؛ فإنه العلم بالإعادة والنشأة الآخرة، وتمييز طبقات ذلك العالم، كل طبقة على انفرادها مخلصة من المزج والتداخل. فلا يظهر الكافر في صورة المؤمن ولا المؤمن في صورة الكافر، ولا السعيد في صورة الشقي، ولا الشقي في صورة السعيد، ولا الكلب في صورة الإنسان ولا الإنسان في صورة الكلب. بل الكلب كلباً، والإنسان إنساناً ويزول حكم الأوصاف العرضية وتبقى الصفات الذاتية اللازمة متميزة، لا تمتزج بعد بأمر، ولا تظهر في صورة عرضية أبداً، بل يتردد في ذاتها بين لوازمها منها إليها بما عليها في ذاته إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً أبدالاً بدين لا يتناهى أمدها ولا ينقضي، أبدها نعيم محقق وعذاب مطلق، ولا تلتبس الصور على ناظرها ولا يحجب أولها بآخرها. قد ظهرت في العين فلا تبدّل ولا تحويل، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢] ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

وإن كان من الماء الممزوج بمياه الأنهار والعيون بعد التخليص، فإنه يعطيك العلم بتنزل المعاني الروحانية، المنشأة من القوالب الجسمانية، وهي اللطائف الإنسانية والحيوانية، والملائكة المخلوقون من الأنفاس، فستعرف مراتب هذه الأرواح المدبرة لهذه الأجسام، وكيفية تعلقها بتدبيره، والنظر إليها وكيفية قبضها عنها، وأنه ليس قبضاً كليًا. فإنه لا يصح أن يكون قبضاً كلياً، فإنه نتيجته. فالرابط يمنع من القبض الكلّي، ولهذا تكون الإعادة فيها المُعبَّر عنها بالحشر والنشر بذلك الأمر الرابط ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥].

تسوية إلهية ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [الفُرقان: ٤٥].

نفخة روحانية ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الفُرقان: ٤٦].

ولم يقل كلياً، ولا يصح فيه القبض الكلي، كما ذكرناه. فإن نشأته تعطي ذلك. فلا بدّ من ظل الأم السُفلية. فهو النور من حيث أبيه. وهو الظل من حيث أمّه. فهو الممزوج في ذاته تخليصه عرضي، فلا يثبت إنما هي لوائح، وهجوم، وحالات فناء عن هذه الجسوم، ثم يرجع العود على البدء، ويخرج المخبوء من الخبء، وقد يقبضه قبضاً أقل من ذلك، وهو قبض النوم، فينزهه في عالمه. وهو أوائل الوحي النبوي بها بدىء رسول الله ﷺ، وبها كان أمر الذبح من إبراهيم الخليل صلوات الله عليه.

والقبض الأعظم هو قبض الفناء المطلق. فيفنى عن ذاته، فيفنى عن ظِلّه. فيتحقق بالحق للحق في الحق لكنه في ذاته على ظله من حيث ذاته، لا من حيث مشهده فلا يقيم إلاّ قليلاً، ويسرع بالرجعة إلى قصره، وقسره. فبذلك الضرب من العلم المتنزل في صورة المزج إذا شربه حصل له معرفة هذا النوع من الوجود.

فإن كان من الماء المنبعث من الأرض، كالعيون، وشربه فحظُّه من صور العلوم علم الطبيعة وكيفيتها، ولماذا ترجع؟ وهل هي حقيقة في نفسها غير معلولة لعلة، أو هي معلولة لعلة معلولة؟ وأين مرتبتها؟ وما سبب ظهورها؟ وهل يتقيّد أول ظهورها بالزمان أم لا؟.

إن ثبت أن لظهورها أوّلية، قد ثبت عندنا ظهور الأولية، وحدوثها وحدوث كل ما سوى الله، ومعرفتها عندنا من أعز العلوم والمعارف فإنها من علوم مبادىء الكون. ومن شرب هذا الماء يعرف لماذا تعلق الكون والفساد للكون بدار الدنيا، ولم يتعلق بالدار الأخرى مع وجودها فيه. وما النوع من الفساد الذي يتعلق بالدار الأخرى في عالم كونها عند أكلك مطعوماتها واستحالتها عرقاً طيّباً يخرج من الأبدان، وما السبب الموجب لطيب العرق في الجنة، وخبثه في أهل النار، ومزجه هنا فيظهر الخبيث على السعيد، والطيب على الشقي، وذلك لاختصاص المزاج. فإذا طلب السعيد هناك الحامل للخبيث هنا. فتعرف أن عين ذلك المزاج ليس هناك ولكنه مزاج آخر. وقد يكون عَرَضيًا لأخلاطٍ فاسدة تتولد وتزول بزوالها. فيرجع المزاج الخبيث على الطيب هنا إلى الخبيث هناك فتكون فيه إعادته، ويرجع المزج الطيّب هنا على الخبيث هنا إلى الطيب هناك. ويبقى المزج الخبيث هنا في الخبيث هنا عليه هناك، وكذلك الطيب. لكن يزيد هذا خبثاً، وهذا طيباً من أجل ما يقتضيه موطن الجنّة، وموطن النار. فإنها على تركيب مخصوص يعطي طبعاً مخصوصاً. فبمثل هذا الضرب من العلوم يتعلق شارب مثل هذا الماء في عالم التمثّل عند المعراج الروحاني.

وإن كان المشروب لبناً. فإنها علوم الفطرة، ولهذا هو أول ما يشق معيّ المرضعات، فيعلم علوم الرسوم والأحكام المشروعة ومن أين صدرت؟ وما حضرتها؟ وإلى أين ترجع؟.

ومن هذا العلم تقف كشفاً واطلاعاً على مقامات الرسل، واختلاف الشرائع في الأحكام واجتماعها في الأصول، وإن الدين واحد، وإن اختلفت أوضاعه ولغاته باختلاف الأعصار والأماكن، وما يثمر في النفوس استعماله في عالم النفوس والأجسام، وما يثمر الإيمان وإن لم يستعمل وما يثمر الكفر به، وردُّه، وما يثمر جحده بعد المعرفة. وهل تنزلت الشرائع بما تقتضيها الحقائق. وهل تنزلت بالحقيقة والمجاز ولما جاءت بصورة مما تُوطىء عليه من الخطاب والألفاظ، وهل لها أن تضع لساناً آخر في العالم أم لا؟.

وهل تحتاج الرسالة، إذا كانت عامة لجميع الناس كافة، إلى معرفة جميع اللغات، أو تحتاج إلى رسول بلسان قوم ليسوا من صنفه فيحتاج أن يكون رسول الرسول معصوماً كالرسول. ولا بدّ فيما يُبلّغ. ثم إذا عرف الرسول جميع اللغات هل من ضرورته أن يتكلم بها مع أهلها أو يسترها عنهم ويخاطبه الترجمان، فتندفع النفوس بين يديه بما هي عليه. ولا تتقيد فيظهر الرسول ما تخفيه صدورهم على ألسنتهم وهم لا يشعرون، ويعرف من هذا الشرب استخراج العلوم الكسبية بالمجاهدات والأعمال والرياضات، وما تستقل العلوم بإدراكه منها. وما لا تستقل بإدراكه، مما هو موقوف على الذوق، والكشف، والوهب، ولا سبيل إلى قبول النفس له إلاّ من هذا الطريق، ويعلم بشرب هذا النوع تنزُّل الروحانيات الأمناء بها على قلوب الأنبياء، وعلى ظواهرهم في الصور الحسية، ويعرف كونها مفيدة بصورة مخصوصة لأيّة حكمة تقيدت تلك الروحانية بتلك الصورة لهذا الرسول في الحس كصورة جبريل في «دحية الكلبي» الذي كان أجهل أهل زمانه وأحسنهم صورة. فكان جبريل ينزل عليه فيها إشعاراً من الحق سبحانه إلى محمد ﷺ وإعلاماً له أنه ما بيني وبينك يا محمد إلاّ صورة الحُسن والجمال، وهي التي لك عندي، فتكون بُشرى له حسًا ولا سيّما إن أتى بأمور الوعيد والزجر، فتكون تلك الصورة تسكّن منه ومن جأشه ما يحركه قهر ذلك التنزل فتعرف هذا العلم كله، وما القدر الذي يتنزّل من ذلك على قلوب الأولياء الذين لم يرسلوا وأين يجتمع الرسول والوليّ، ومعرفة مرتبته هناك ﷺ. وتميزها عن مرتبة غيره من المشاركين له في البساط. فهو الولي الكامل، والعارف المحقق والمقرب المتمكن، وإن أرسل إلى الأكوان فهو من حيث رسالته مقرب باللسان والنيابة والحجابة من حيث ولايته، ومعرفته بالذات والحقيقة.

فالمكلفون يشهدون التقريب بحقائق الإيمان إذا آمنوا، ولو جحدوا ونحن نشهد التقريب بحقائق العيان ولو نزل إلى الأكوان فمرتبته معينة مميزة فتعرفه بها في كل موطن فتعظيمه في نفوسنا أشد تعظيم.

انظر لمن آنس هذا منه ﷺ حين قال: «**آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر**»[1] فقطع بإيمانهم لتحققهم عنده بأنهم من أهل العيان له هناك، وأمثال هذه العلوم تنتجها ألبان الضروع.

وأمّا إن كان المشروب عسلاً. فإنه يعطيه معرفة الشرائع الحكمية والرهبانية المبتدعة، وما يقتضيه دورات هذه الأفلاك وتسيير هذه السيارة وترحّلها وحركات منازلها من الأوضاع الإلهية والأسرار الحكمية التي أودع الله تعالى في هذه الحركات واستشراف بعض النفوس عليها الفاصلة إذا تسدد نظرهم، وعصمت أفكارهم، وارتقوا عن حضيض الخيال إلى أوج المعاني العقلية والأمور الروحانية السماوية مجردة عن موادها غير ملتفتة إلى أجسادها فتعرف هذه النفوس وجوهها على التجريد، ثم تطّلع على دقائقها الخفية التي بها يقع المدُّ لهذا العالم الكوني، فتميز الرقائق. ثم تنزل عليها بعيون بصائرها إلى هذا العالم فتعرف المكان والمزاج والوضع. فتلقي من الأحكام في العالم على ما يعطيه القبول لا غير. فإنها ليست مؤيدة بالفيض الإلهيّ فتقصر عن تلك القوة فيكون إلقاءً نسبياً تقبله النفوس بالنسبة الرابطة بخلاف الشرع الحكمي المؤيد بالأمور الإلهية. فيقيم المعجزات ويخاطب القاصي، والدّاني. والبعيد والقريب. ويشرع من الأحكام ما يخالف أكثر الأغراض، وما تجهل حكمته، وما لا تستقل العقول بإدراك معناه. وبهذا يتميز عن الشرع الحكمي، والرهبانية المبتدعة، ولكن قدم رعاها الشارع وأبان عنها الحق، وذمّ من شرعها ولم يرْعها وهذا تقرير عجيب لها، ومن هذا الشرب تكون علوم الإلهام الواضحة البيان، وتظهر على النفوس آثار محرقة، يُعَبِّر بها عندنا بالاصطلام. وهو الوله الغالب على القلب.

وأمّا إن كان المشروب خمْراً فإنه يعطي علوم الأحوال العجيبة، وهو كان مشروب العلاج بحمد الله. وهو دون الرتبة من هذه المراتب، ومن هذا الشرب يعلم ضروب التجليات، وما تعطيه من الآثار في النفوس الإنسانية وغيره. ولصاحبها

---

(١) رواه الذهبي في سير أعلام النبلاء، ترجمة القشيري، [ج١٨ ص٢٢٧]. وفي معجم المحدثين، حرف الكاف، [ج١ ص١٩٩]. وابن عبد البر في الاستيعاب بمعرفة الأصحاب، باب من اسمه منهم عبد الله،[ج٢ ص٨٠]. والرازي في تفسيره، سورة الكهف آية ٩ [ج٢١ ص٤٤١].

جولان في عالم التركيب، بعلم التصريف والتسخير، وتكون له قوة الكشف مستصحبة، يعرف مواقع التقدير فيبادر إليها، وإن كانت مخالفة لما هو عليه طريق الترقي فلا يحجب بإتيانها، والوقوع فيها، فإنه وقع عن بصيرة، وهذا هو سر السريرة فإذا امتزج بعض هذه المشروبات ببعض فإنه يعطي من العلوم ما يعطيه المشروبان، وما يعطيه المزج فإنه يعطي ذوقاً آخر يعرفه شاربه، ولولا ضيق الوقت، وطلب الإيجاز وما مهدناه مما يستدل به على ما تركناه لذكرنا ذلك مفصَّلاً.

وهذه علوم الوهب مسرودة، كما شاهدناها بعدما أقمنا الصلوات، ورمينا الجمار، ونحرنا القربان، وربح الأحباب، وخسر الأعداء، الذين هم على قلوب الذئاب. وانقطعت آثارهم عن العالم العلويّ والمشهد السني، فهم أعداء هذه الطريقة والمحجوبون عن عالم الحقيقة.

وللربوبية على أصحاب هذه المشارب سلطان في أوقات سلوكهم، ولها إليهم نظر في حين معارجهم. فإذا وصلوا إليها ونزلوا عليها أكرمت مثواهم ورفعتهم على نُجب العناية إلى حضرة الإنيّة المحققة، وهي التي تهبهم هذه المشروبات. فالمعطي واحد، والمعطى مختلف. والمعطى له على حقيقة مخصوصة فيشرب شرباً مخصوصاً على قدره، فيعرف من ذلك على قدر معلوم فهو الرزق المقسوم في أصل النشأة وبدء الخلقة. جعلنا الله وإياكم مِمّن سلك فوصل، ونزل، وشرب، وعصم من سكر الأحوال، والتحق بالرجال، إنه المليّ بذلك والقادر عليه، انتهى المقدّر من هذا المنزل من الفتوحات المكية والحمد لله رب العالمين وصلاته على محمد وآله أجمعين.

[كتب من أصل مقابل على أصل قُرىء على المؤلف، رضي الله عنه، وقوبل عليه فصحّ بقدر الطاقة، والحمد لله وحده][1].

(١) هذه العبارة التي بين مزدوجين من كلام الناسخ كما هو واضح.

رسالة اللمعة

الموسومة بـ«كشف الغطا عن إخوان الصفا»

تأليف

الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن محمد
ابن عربي الحاتمي

المتوفى ٦٣٨هـ

اعتنى به

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اللهم أعذنا من غرك إليك وأعذنا للمثول بين يديك

واجعلنا ممن تعقَّل حقيقة جمالك وتوغل في تقصِّيه كمالك، وصلى الله على الأئمة الأنبياء، والقادة الأتقياء، وخصص محمداً وآله بأسنى صلواتك وأزكى تحياتك.

وبعد

فإن هذه اللمعة موسومة بكشف (الغطا لإخوان الصفا)، أبرزتها الرحمة الإلهية الأزلية، لترقي أرباب النظر والبرهان إلى رتبة أصحاب العبر والعيان، جمع الله تعالى إخوان التجريد، في مقعد الصدق عند الصمد الحق عزّ شأنه، وبهيّ برهانه.

فصل

المعلول: صورة العلة وظاهرها.

والعلة: حقيقة المعلول وباطنه.

لأن المعلول من حيث هو ممكن الوجود، وليس له إلاّ قبول الوجود، فإذا أوجده العلة فجميع ما يشاهد منه من الكمالات هو أوصاف العِلّة.

وكمالاته: تجلّى في مظهر ماهية المعلول على قدر ما كان قابلاً له، فإذا نظر إلى المعلول من لا يعلم أنه معلول لغيره، أو يعلم ولم يتفطن لكونه معلولاً حال النظر إليه. نسب كمالاته المشاهدة إلى المعلول. ومن تفطن لمعلوليته ونظر إليه حال التفطن يشاهد كمال العلة على الحقيقة. وكان ماهية المعلول من حيث صور المثل هي المرآة المصقولة، فإنه ليس للمرآة سوى استعداد حكاية صورة المحاذي، وكمال العلم بهذا الشخص المحاذي للمرآة.

فمن نظر في المرآة، وغفل عن كونها خالية عن جميع الصور، من حيث ذاتها نسب الصور المرئية فيها إلى كونها صور المرآة.

ومن علم حال المرآة، وخلوّها في ذاتها عن الصور، نسبها لا محالة إلى شخص خارج عن المرآة. فاجعل جميع الممكنات وما يرى فيها من الكمالات المحسوسة والمعنوية صوراً لمرايا. بل اجعل جميعها مرآة واحدة لتصير من أهل المشاهدة.

فصل

ثم ارقَ إلى رتبة أعلى من هذه. وهي:

بأن تنتبه لأن مُدْرَكَك غير خارج عن ذاتك، لأن المدرَك محاط بالمدرِك من حيث أنه مُدْرَك. والمدرِك محيط بالمدرَك من حيث أنه مدرِك. ولا شك أن هذه الإحاطة إحاطة علمية والعلم غير منفك عن ذات العالم.

فجميع معلوماتك محاطاً بذاتك محيط به. فإذا كل ما أدركته فهو في ذاتك ظرفية معنوية. فإن ذاتك من عالم المعاني. فلا بد من كونها محيطة بشيء أن يكون

لها إحاطة معنوية، فإذا انكشف لك هذا المقام رأيت نفسك محيطة بجميع معلوماتك، وكل ما حضر لك فتصير نفسك المرآة المذكورة.

وهذه مشاهدة أخص من المشاهدة الأولى. فإن كنت تشاهد الموجود الحقيقي قبل هذا في غيرك فالآن تشاهده في ذاتك. وبين الرتبتين مسافة فادحة[١] وبون بعيد.

فصل

ثم فوق هذه المنزلة رتبة أخرى أعلى منها وهي:

بأن تتفطن لإمكان ذاتك، وكونها غير موجودة من حيث هي هي فترفعها من البين فتدرك الأشياء كلها من حيث هي تجليات الحضرة الأحدية فتغفل عن ذاتك من حيث هي هي محل لرؤية الأشياء فيها بل ترى كلها منسوبة من حيث القيام إلى المطلوب الحقيقي، فتبقى أنت مشاهداً للتجليات فقط، فترى الأشياء كلها قائمة بالحق تعالى وتقدس، وترى نفسك متبجحة بمشاهدتها، وإذ تعلم أنها حالات للحق تعالى، فيتأكد المشاهدة غاية التأكيد فيتضح المطلوب وضوحاً يبهر البصيرة.

فصل

ثم إذا أمعنت النظر في هذا المقام، وجدتك غير خارج عن المقام الذي فارقته، وذلك لأنك كنت تجد الأشياء في ذاتك من حيث أنك كنت تدركها، ولهذا النظر كنت تجدها في ذاتك.

وأمّا الآن فقد قطعت نظرك عن ذاتك من حيث هي محل للأشياء وكون الأشياء قائمة بها، ولكنك في مقام تثبت فيه كونك مدركاً للأشياء فيفيد كونك محلاً لها، وقد بان لك استحالته، فإذاً كونك مدركاً لها يلزمه المحال فيكون محالاً، فيتفصل في هذا المقام عن كونك مدركاً للأشياء، فيظهر لك أن المدرك في الحقيقة هو الحق تعالى والله أعلم بالصواب.

تمت الرسالة بعون الله تعالى، والحمد لله وحده،

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

---

(١) أمر فادح إذا عال الإنسان وبهظه وأثقله. والفدح إثقال الأمر والحمل صاحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة في أسرار الذات الإلهية

تأليف

الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن محمد
ابن عربي الحاتمي
المتوفى ٦٣٨ هـ

اعتنى به

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلّم إلى يوم الدين.

وبعد

فإن حقيقة الذات الإلهية من حيث هي هي امتدادها. أعني: مدة بقائها غير مضبوطة. لأنها من حيث هي كذلك. لا وصف لها، ولا اسم ولا رسم. فهي في عماء، كما جاء في الحديث[1]. إذ لا يمكن معرفتها بوجه من الوجوه ما لم تتعين بصفة.

وأول التعينات علمها بذاتها. فهذه الصفة تَنزُّلها من الحضرة الأحدية التي لا نعت لها، إلى الحضرة الواحدية التي هي حضرة الأسماء والصفات، وتسمى الحضرة الإلهية وهذه الحضرة أثبتت للحضرة الأولى أزلية الآزال بهذه النسبة الاعتبارية بين الذات الأحدية وصفاتها. إذ لا تعقل النسبة إلا بعد اعتبار الإثنينية. وسميت تلك النسبة السرمد، وتحققت بهذه النسبة أزلية الآزال أعني: تقدم الأحدية على الواحدية.

والواحدية هي الحضرة التي لأزليتها أول، وهي أزلية الآزال وذلك ابتداء السنة السرمدية. وقد اقتضت الحضرة الإلهية، بهذه النسبة، حقائق الأعيان بحكم العالمية فتحدث لها بحدوث الأعيان نسبٌ أُخَرْ، بين الحقيقة الأولى وتلك الأعيان.

---

(١) يشير إلى الحديث الشريف الذي رواه الترمذي في جامعه الصحيح، باب ومن سورة هود، حديث رقم (٣١٠٩) [ج٥ ص٢٨٨]. وابن ماجه في سننه، باب فيما أنكرت الجهمية، حديث رقم (١٨٢) [ج١ ص٦٤] وابن حبان في صحيحه، باب ذكر الإخبار عما كان الله فيه قبل..، حديث رقم (٦١٤١) [ج١٤ ص٨]، ورواه غيرهم.

كقادريته على إيجادها، ومشيئته لها، والتكلم إيّاها بخطاب ﴿كُن﴾ [البَقَرَة: ١١٧] والسميعية لدعائها بطلب الإيجاد على الوجه الذي عينته المشيئة المسماة بالعناية الأولى البصيرية بشهودها على تلك الصفات المتباينة. والعالمية تحكم على الذات بالحياة فجعلت هذه السبع مع الذات أئمة الأسماء لأنها أسماء أولية متقدمة على سائرها.

وفي الحقيقة صفة العالمية، تقتضي أن الاسم «العالم» إمام الأئمة السبعة. لتحقيق تقدم العلم على الإرادة وسائرها سوى الحياة المصححة للعلم. لكن الحي وإن تقدم بالوجود لا يستحق الإمامة لتقدم العالم بالشرف. فإن الحياة لا تظهر إلا بالعلم والإدراك. فهي كالشرط والاستعدادية.

ولما كانت هذه الصفات السبع أموراً اعتبارية مقتضية لربوبية الرب المطلق لجميع الأشياء بواسطتها. وكانت أزليات هذه الأسماء متقدمة على أزلية الربوبية مطلقاً. فحضرة الربوبية متأخرة عن الحضرة الإلهية تأخرها عن حضرة الذات.

فأزلية الآزال هي الأولية المطلقة التي لا تعدد فيها.

وأزلية الإلهية متعددة بتعدد الأسماء.

والأسماء لا تحصر كثرتها. لكنها مع تناميها تنحصر في السبعة لأنها جزئياتها وفروعها المتشعبة منها. فلا تخرج عن إحاطتها. فلكل من السبعة حضرة من حضرات الأسماء فيها طائفة من هذه الأسماء الغير المتناهية.

فتحت كل اسم منها أسماء غير متناهية يتوسط بين الذات ومربوباتها في الربوبية بالأفعال. فحضرات الأسماء تنحصر في هذه السبعة، كلها سابقة على حضرة الربوبية.

والحضرة الربوبية هي التي: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرَّحمٰن: ٢٩] فالامتداد الأول أي امتداد بقاء الأحدية من أزل الآزال إلى أبد الآباد. ليس فيه نسبة ولا قسمة، وهو عند اعتبار التعينات الوصفية ينفصل إلى الامتدادات الأسمائية. والأسمائية إلى الامتدادات الربوبية.

وتسمى الدهر، ونظيرها في الزمان امتداد الدور الفلكي. فإنه إذا اعتبرت الحركة الأولى وامتداد مقدارها الذي هو الزمان المطلق. مع قطع النظر عما تحتها لم يكن لها ابتداء ولا انتهاء، ولا قسمة.

فإذا اعتبرت محاذاة الشمس لنقطة منها. أيّ نقطة كانت ابتدأت السنة، التي كل دورة فيها وصول الشمس إلى تلك النقطة بحركتها التي تحتها نقطع بها أجزاء فلك البروج. وينفصل الامتداد بها إلى السنين، وتنفصل السنّة باعتبار قطعها للبروج إلى

الشهور. والشهور باعتبار وصولها إلى النقطة الأولى بالحركة اليومية إلى الأيام. والأيام إلى الساعات. والساعات إلى الدقائق، والدقائق إلى الثواني، ثم إلى الثوالث حتى الآن. وهو في الزمان منزل النقطة الهندسية من الخط، ويُفسّر بالزمان الحاضر، وهو أقصر من الزمان، وهو الذي لا ينقسم من غاية الصّغر إلاّ في الوهم.

وقد تطلق الأيام على كل واحد من الأجزاء مجازاً باعتبار أنه حيّز محدود في الزمان. فأقصر الأيام هو الآن. وأطولها بحسب الزمان هو السنة.

ولا شك أن الأقل عاد فالأكثر عدا الواحد للأعداد والأكثر متعدد بالأقل.

تقدر المائة بالعشرات. وكما أن الساعات تقدر الأيام، والأيام الشهور، والشهور السنين، والسنون مطلق الزمان. فكذلك الزمان، الذي هو أقصر الامتدادات الأزلية، يقدر الباقون. أي الدهر والسرمد.

ولنرجع إلى المقصود فنقول: إن الله يقتضي الربوبية بأسمائه. والأسماء لدوام تأثيرها تقتضي وسائط في ربوبيتها لما في هذا العالم وهي الأثيريات. فاقتضى الأئمة الكواكب السبعة السيّارة مع أفلاكها، وجعلتها الرؤساء والسادة في تدبير أمور الدنيا. وسخرتها بأمر الله تعالى.

كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [النحل: ١٢].

أي الأمر الواحد الإلهي في قوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ [القمر: ٥٠].

أي سخّرتها على التدابير الجارية في هذا العالم، التي هي الشؤون الإلهية في أيام الدنيا. كما أشار إليه في قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرّحمن: ٢٩].

ولما كانت أيّام الدهر أيام الربوبية الممتدة مرآتها أزلية الحضرة الإلهية. إلى أزلية الربوبية. ويمتد الربوبية إلى انتهاء التغيرات الزمانية. كانت أيام الدهر أطول من الزمانيات، التي هي امتدادات منحصرة في امتداد مقدار الحركة الأولى، أعني: الزمان، فيتقدر بالمقاييس الزمانية مقدراً بالعدد التام منها وهو الألف. فكل يوم منها ألف سنة. وهي أيام الربوبية، وأيام التدبير. كما أشار إليه في قوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحجّ: ٤٧].

وهو يوم الرب المدبّر الذي وقّت به العذاب، وإنجاز الوعد. في قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجّ: ٤٧].

والتدبير في قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [السَّجدَة: ٥].

والسمٰوات سبع على مقتضى الأئمة السبعة كان مقدار الدنيا سبعة. من تلك الأيام أسبوعاً واحداً. لكل رئيس دور تام في الأدوار الزمانية. ومن هذا ينكشف من انشقاق القمر، وختم النبوة. فإن ظهوره ﷺ في اليوم الآخر الذي هو جمعه الأسبوع المذكور كظهور آدم عليه السلام في اليوم الأول. وسرُّ قيام الساعة بانقضاء اليوم السابع الذي نحن فيه. وسر تعظيم الجمعة في الشرع المحمدي. ولهذا قال ﷺ: «**إن استقامت فلها يوم. وإن لم تستقم فلها نصف يوم**».

وفي الحديث بشارة لنا بالاستقامة حيث جاوزنا النصف.

ولما كانت أيام الآخرة أيام الألوهية الممتدة من ابتداء أزلية الآزال إلى انتهاء الربوبيات الأسمائية كانت أطول من أيام الربوبية. فتقدر بالمقاييس التي هي أيام الربوبية.

والربوبية تحصل بأي اسم كان. وأمّا الألوهية فلا تتم إلا بالأئمة السبعة. فالربوبية في الحقيقة سُبْعُ الألوهية. فأيام الدنيا سُبْعُ أيام الآخرة. وهي الحاصلة من ضرب أيام الدنيا في عدد الأئمة السبعة. فيكون تسعة وأربعين ألف سنة. وينتهي الأمر فيها إلى الله العلي ذي المعارج الأسمائية العُلَى. وبانقضائها في اليوم التالي لهذه المدة من أيام الربوبية. ينتهي المعارج كلها إلى الفناء في الذات. فيتم الخمسون ويتحقق معنى قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ [المعَارج: ٤].

فإن انقضاء التسعة والأربعين واحدة إنما تكون بالخمسين وهو يوم القيامة الكبرى. فاصبر صبراً جميلاً إن كنت من أهل هذه القيامة. وإذا كان طول هذا اليوم خمسين ألف سنة. كانت القيامة الصغرى أول موطن من مواطنها كما قال ﷺ: «**من مات فقد قامت قيامته**».

وقال ﷺ: «**القبر أول منزل من منازل الآخرة**».

والوسطى هي أوسط مواطنها. وفيه مواطن مختلفة، وأحوال لأهلها متباينة كموطن الجمع، وموطن الفصل، وموطن فيه: ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرَّحمٰن: ٣٩] وموطن يقال فيه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝٢٤﴾ [الصَّافات: ٢٤] وموطن فيه: ﴿تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١]، وآخر فيه: ﴿يَنطِقُونَ﴾ [المُرسَلات: ٣٥].

وإذا تحققت الحضرات الثلاث وامتداداتها تحقق معنى قول من قال: (أنا أقل من ربي بسنتين).

وإن من امتداد أول التعينات ابتدأت السنة، التي كل يوم منها ألف سنة. وكما أن كل أسبوع من هذه السنة سبعة آلاف سنة، وكل شهر ثلاثون ألف سنة، وكل سنة ثلاثمائة وستون ألف سنة. فكل أسبوع من السنة الأولى ثلاثمائة ألف وخمسون ألف سنة. وكل شهر ألف وخمسمائة ألف سنة.

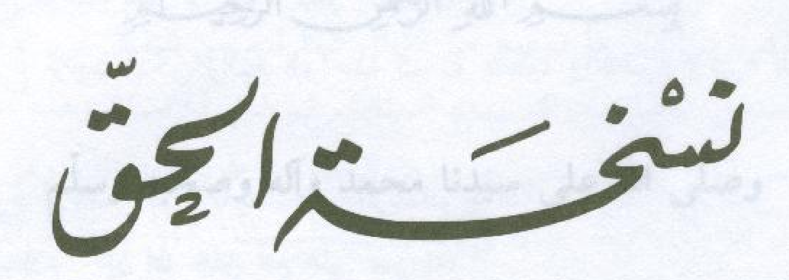
وكل سنة ثمانية عشر ألف عام. وهي الأحقاب المذكورة في قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴿٢٣﴾﴾ [النبإ: ٢٣].

ومن ترقى إلى الحضرة الواحدية خرج من أيام الربوبية إلى الأيام الإلهية في السنة السرمدية. ومن بلغ الحضرة الأحدية جعل تحت قدمه الأوقات العددية. وكان وقته واحداً. وكان عن كل رتبة صاعداً.

والله الباقي بعد الخلق. وذلك يوم الحق.

[تمّ المختصر بعون الله الوهّاب
والحمد لله وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم
سنة خمس وعشرون وثمانمائة أي سنة ٨٢٥هـ][(١)]

(١) ما بين معقوفتين هو من كلام الناسخ الذي انتهى من نسخ الكتاب سنة (٨٢٥هـ).



تأليف

الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن محمد

ابن عربي الحاتمي

المتوفى ٦٣٨ هـ

اعتنى به

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي



وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم

قال سيدنا وشيخنا وإمامنا الشيخ الإمام العالم المحدّث شيخ الطريقة وإمام التحقيق نسيج وحده وفريد دهره «محيي الدين أبي الفضائل أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد بن العربي الحاتمي الطائي» غفر الله له ونفعه:

الحمد لله الذي جعل الإنسان الكامل معلم الملك وأدار سبحانه تشريفاً وتنويهاً بأنفاسه الفلك. فما لك لا تشكر الله أيها الإنسان على ما خوّلك، وما لك لا تحمد الله وقد نزّلك آمراً بين سمائه وأرضه وبما فضلك ووضعك في أول نشئك ميزاناً في أرضه فما كان أعدلك. جمع لك سبحانه في خلقك بين يديه تمييزاً على سائر خلقه فسوّاك وأعدلك، وفي أحسن تقويم خلقك فكمّلك، وعلى الصورة الإلهية فطرك، وعلى ثمانيتها حملك، فأنزلك خليفة في الأرض الجامعة لأصناف المكلفين من معدن ونبات وحيوان وإنس وجن وملك. وخلع عليك خلع الأسماء كلها فجمّلك فما بقي ملك في السموات والأرض ممن قدح فيك إلاّ أسجده لك، وبرزت الحقيقة في أحسن زينة وقالت هيت لك. فأنكحتها بكراً صهباء في لُجّة عمياء نكاحاً لم يفنك عمّا به الحق وصّلك. فأدّيت الأمانة إلى أهلها فلم يَجُر عليك لسان ما أظلمك وما أجهلك.

وسبب ذلك كون عين شمسك ما دلّك وما استتر عنك من لم يزل معك، وإن نزّلك فغمرك النور الاعتصاميّ وشملك وتخلصت به من سلطان حنادس هذا الحلك، وخلصت به تدبيرك وعملك. إذ كنت المدبر لعالم الكون الذي إن صرفت وجهك عنه ساعة فُني وهلك. وصلى الله على من حكم بين الناس بالقسط، وما اتبع أهواءهم فكان أحسن خليفة ملك، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب وعلى آله وسلّم تسليماً كثيراً.

أمّا بعد

فإن الله تعالى لمّا أوجد العالم أوجده على ثلاثة أنواع من الإيجاد.

- فنوعٌ أوجده بكُنْ لا غير، وهو أكثر العالم.

- ونوعٌ أوجده بكن واليد الواحدة كجنة عدن، والقلم، وكتبة التوراة وغير ذلك.

- ونوعٌ أوجده بكن ويديه. وهو الإنسان خاصة ولذلك خرج على الصورة كما قال عليه السلام: «**إن الله خلق آدم على صورته**»[1].

فلما أبدع تركيب جسده من كل حقيقة في عالم الكون المركب، وحطت فيه قوى عالم الأفلاك والأركان، وليستعد لقبول الفيض الروحاني نفح فيه الروح فنطق بالثناء والحمد لله، ولكن بعدما انتشر فيه النور، وخرق مسالك ظلمته فعطس فحمد الله فقال الله: «**يرحمك ربُك يا آدم لهذا خلقتك**».

فسبقت رحمته به غضبه. أي نتيجة الغضب بخروجه من الجوار الأدنى إلى الجوار الأقصى، من عالم الراحة إلى عالم المكابدة والمجاهدة والاستحالات الردية، وجمع له بين يديه تشريفاً وابتلاءً ولهذا قال تعالى تنبيهاً على التشريف: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥].

فأول مقام حصل فيه مقام الأعراف، ومنزل الوسط وقيل له:

مهما ملت إلى جانب ووفَّيْته نقصت الآخر، ولا يصح لك المشي على حكم الوسط لأنك خلقت للإنتاج فرياحك لواقح فلا بد من الميل. فإن كنت فلا بد مسائلاً فهذا تبيين لك لأي الجانبين تميل. فأبرز له الأنوار على الجانب الأيسر، وأبرز له الظُلَم على الجانب الأيمن. وقال في الأيمن:

هذا صراط ربك مستقيماً. فإن دخلت في هذه الظلم فستحصّل أقصى ما يكون من الأسرار والحكم. هذه الظلمة هي غيب الغيب وحضرة إلهية والجلال لا تسلك أبداً إلاّ بنور السالك. فإن كان السالك ذا نور دخل ومشى قدر ما تعطيه قوته ثم

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب الوعيد الشديد لمن عذّب الناس بغير حق، حديث رقم (٢٦١٢) [ج٤ ص٢٠١٧] وابن حبان في صحيحه، باب ذكر الزجر عن قول المرء لأخيه قبّح الله وجهك، حديث رقم (٥٧١٠) [ج١٣ ص١٨] ورواه غيرهما.

يرجع إلى موقفه، وقد حصل من المعارف المشهدية ما لا يعرفه إلاّ هو خاصة، وتنبعث من هذه الظلمة ريح شديدة تطفي سرح الأفكار فلا يدخل فيها ذو فكر أبداً.

ولذلك قال ﷺ: **«تفكّروا في آلاء الله، ولا تتفكروا في ذاته»**(١).

وقد ذكرنا في غير ما موضع من كُتبنا، لما مُنع من التفكر في الذّات وكذلك كل ما لا يستقل العقل بإدراكه بهذه المثابة. ثم قيل للإنسان وهذه الأنوار على الجانب الأيسر أنوار الهداية يبصر بها طريق النجاة من طريق الهلاك، وهو قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣]، ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البَلَد: ١٠].

فإذا مشى الإنسان على يساره فإنه لا يمشي حتى لا يستقبله. فإذا استقبله رجعت الأنوار على يمينه فرأى انفهاقها من الجانب الأيمن، ويرتمي لها شعاع على الجانب الأيسر فتعاين ما بين الجانبين من التفاوت. وغاية كل جانب. فلتسلك الوسط هنا ولا بد. ولا تميل لأحد الجانبين. فإن الميل إلى الجانب الأيمن يرمي بسالكه في بحر البهت والسكون فيخسر عمره فتنقص مرتبته عن مرتبة غيره. فإن دار التكليف والترقي بالأعمال إذا لم يعمل فيها الإنسان ما يليق بها لم يجنِ ثمرة. أي لم يغرس ما يجني. وأنف من ذلك رجال الله.

والميل أيضاً إلى الجانب الأيسر يلقيه في بحر التلف وهلاك الأبد، والنجاة في ثبوتك على الطريق الوسطى من غير ميل إلى أحد الجانبين. وهذا هو الطريق الذي قال فيه رسول الله ﷺ وخطّ بيده في الأرض، وخطّ خطوطاً عن يمين الخط ويساره هكذا:



وتلا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

(١) أورد تخريجه السيوطي في الدر المنثور، الآية ١٩١ من سورة آل عمران، [ج٢ ص٤٠٩]. وانظر كشف الخفاء للعجلوني، حديث رقم (١٠٠٥) [ج١ ص٣٧١] وأورده غيرهما.

ولما أُنشِئَ الإنسان الأول هذه النشأة، ونُفِخَ فيه الروح كانت نشأته أكثف النشآت الإنسانية، فأُعطي علم الأسماء في أصل نشأته. جُبِل على ذلك، ولو تُرِك حتى يعرفها بطريق الكسب من باب المجاهدات والرياضات لم يصل إلى ذلك إلاّ بعد قطع ثلاث مائة قاطع، والذين هم اليوم على قلب آدم هم ثلاث مائة لثلاث مائة خلق إلهي.

وقد ورد في الخبر: «**إن لله ثلاث مائة خلق**»[1].

وصورة هذا الإعطاء هو علم حقائق الموجودات. والحقائق هي المعروضة على الملائكة وهم المسمّون. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ [البَقَرَة: ٣١].

ولم يقل عرضها. وأوجدها لهم في حضرة التمثل فأشار إليهم فيها بأسماء هؤلاء فما عرف أحد منهم صورة تركيب الحقائق لكونهم ليس لهم قدم فيها ذوقاً. إذ نشأتهم مجردة عن المواد، ولذلك لم يدخل إبليس مع الملائكة في شهود هذا العرض مثلما دخل معهم في حضرة التكليف بالأمر بالسجود. فلما لم يكن لهم في علم التركيب الطبيعي شرب، ولا أعطته حقائقهم قالوا: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٢﴾ [البَقَرَة: ٣٢].

فقال لآدم: ﴿أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البَقَرَة: ٣٣].

فأخذ حقيقة الجسم، وحقيقة التغذي، وحقيقة الحس وحقيقة النطق.

فقال هذا الإنسان وأزال حقيقة النطق وركب على ما بقي حقيقة الصّهيل فقال: هذا فرس.

وهكذا في جميع الحقائق، فعلّمهم صفات الاشتراك والصفات التي بها يتميز كل نوع عن نوع آخر. وذلك لأنهم من عالم الحلّ والتركيب وهذا صادر من تركيبات النسب الإلهية من هناك صدرت. وكذلك النسب الروحانية، والوجوه وترتيب التركيبات في الأولاد مشهد من ترتيب الموجودات الأمهات، وكما وقع التولد عن ذلك الترتيب كذلك وقع التوالد هنا فرجعت الملائكة بعد قبولها لهذا العلم الآدمي فوجدت أنفسها على ضرب من التركيب في ترتيب وجوهها ونسبها وتوقف بعض

---

(١) أورده الغزالي في الإحياء، كتاب النية والإخلاص [ج٤ ص٢١٩] وكتاب المحبة والشوق والأنس [ج٤ ص٢٥٧] ونصه: «**إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى ثَلاثَمِائَة خُلُقٍ مَنْ لَقِيَهُ بِخُلُقٍ مِنْهَا مَعَ التَّوْحِيدِ دَخَلَ الجَنَّةَ**» فقال أبو بكر: يا رسول الله هل فيَّ منها خلق؟ فقال: «**كُلُّها فِيكَ يا أبا بَكْرٍ وَأَحَبُّها إِلَى اللَّهِ تَعَالَى السَّخاء**».

وجوهها على بعض فعلمت أنها بذلك الأمر قبلت تعليم هذا الصنف من المعارف لكن لما كان الأغلب عليها كونها بسائط كان الحكم للأغلب فلم يعرف التركيب، ولما كان الأغلب على النشأة الإنسانية التركيب الطبيعي كان الحكم للأغلب فكان له التأييد في تركيب الحقائق وذلك من الاسمين المدبّر والمفصّل اللذين هما من رؤساء الأسماء.

وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣] هو عالم الأرواح.

﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [يونس: ٥] في عالم الجسوم.

فقد جمع الإنسان في حقيقته بين العلمين:

ـ العلم الضروري: وبه يشارك الملائكة.

ـ والعلم النظري: وبه تميّز عنهم.

ومما تميز الإنسان عنهم به أيضاً بتصور المعلومات ذوات الصور وليس للروحانيين من هذا التصور شيء، وإن كان لهم العلم.

وهذا كله راجع إلى اختلاف النشأة، وكذلك إذا وقفت يا وليِّ على نشأة هذه الجسوم على طبقاتها كما ذكرناه في كتاب «الجسوم الإنسانية».

وإنما هي خمسة أنواع يعطي كل نوع منها ما لا يعطيه الآخر وهو جسم آدم، وجسم حواء، وجسم عيسى عليهم السلام وأجسام بني آدم، والأجسام المدركة للمتصور في عالم الخيال والتمثل، وأجسام التعفين إذا اتفق أن يعطي نشأة الإنسان من جنس آدم عليه السلام. والتعفين المشروط فإنه قد جاء في الخبر: «**إن الله خمّر طينة آدم**»[1].

والخميرة: هي تعفين العجين ليغلب عليه الجزء الهيولاني وهو الحرارة والرطوبة، وهو طبع الحياة، فانظر هذا الفصل في ذلك الكتاب نظر منصف مستفيد، ثم لتعلم أن قول الصوفي في الفلك إنه يدور بأنفاس العالم. يريد العالم المتنفس أي علّة دورانه وجود الأنفاس. أي عند دورانه يحدث الله الأنفاس. فإذا لم يبقَ فيه حركة تعطي نفساً في متنفس لم يعط حياة، وإذا لم يعط حياة فقد ذهبت الحياة منه، وإذا ذهبت الحياة عنه لم يبقَ له شوق، وإذا لم يبقَ له شوق لم تكن له حركة، وإذا لم

(١) رواه الطبري في تفسيره، قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ الآية [ج٣ ص٢٢٥]. وأبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء، ترجمة أبو إسحاق الفزاري، [ج٨ ص٢٦٤] وأورده غيرهما.

تكن له حركة انفطرت الكرة وذهب العالم العنصري بأجمعه. وقد ذكر هذه المسألة «أبو طالب» وما فسرها في باب الأوقات.

فهذا نوع واحد من الأنواع التي يقال من أجلها إن الفلك يدور بأنفاس العالم.

وميثاق آخر في ذلك وهو أن الفلك لما دار أعطى المولدات ابتداء في أول دورانه، وعدد دورانه بعدد الأنفاس الكائنة في المولدات فهو يدور بعدد ذلك فإذا انتهى انخرم النظام وانتقل العمارة إلى الآخر بالحركة العظمى المحيطة التي قد يشاء الحق أن لا تنخرم أبداً شرعاً وحكماً، ولذلك لا ينخرم العالم انخرام عدم، وإنما انخرامة انخرام انتقال وتحول وتبدل. فصور تخلع من الجوهر، وصور تخلع عليه وبتلك الدورة الكبرى يبقى العالم في البرزخ وفي الدار الآخرة أبد الآبدين لا يزول ولا يفنى، واستمداده من حضرة الديمومية وبهذا يتعشق وهي المبقية لعينه، ولهذا كانت حركات العالم شوقية كلها من أجل التجلي على البعد الذي ظهر للعالم فانزعجت الأرواح للّحوق بذلك المحل الأشرف انزعاجاً روحانياً مقدّساً فانزعجت الهياكل من عالم التركيب لانزعاج الأرواح فظهرت الحركات في الأجسام لقبول الجسم للحركة ولطول المدى عرضت الآفات في الطريق للكل بتجلي صور الأعراض لهم فاختلفت المقاصد بعدما كان الأمر واحداً، وبقي الشوق على وحدانيته فما في الوجود حركة إلاّ شوقية وإن اختلف المشوق إليه بحكم الصور وإن كانت العين واحدة فيظهر بصورة اللذة، وصورة النجاة والنور، وصورة الجمال الأثري الهارب من الموت يتخيل أن حركته حركة خوفية وهي حركة شوقية إلى صورة بقاء الحياة لا إلى الحياة فإنه ملبوس بها فإن الحركة ليس سببها إلاّ ما هي إليه نهايتها لا ما هي منه بدايتها فإن الفراق يناقض الاشتياق.

والشوق طلب الوصلة بالمشوق إليه فالحركة له لا لغيره. وهذا الباب وهذه الحضرة عجيبة ذكرناها في غير هذا الكتاب على ما يعطيه التحقيق في الأمور. فافهم.

وأمّا كونه أن جُعِلَ خليفة في الأرض، دون السماء، ودون الجنة والنار فلما يذكره. وذلك أن الأرض محل الجمع، ومنزل المزج والاختلاط. فهي الجامعة لأصناف الموجودات المختلفات والمتضادات من أهل المخالفة والموافقة. عالم الرحمة، وعالم الغضب، وعالم القهر، وعالم العفو، وعالم الذلة، وعالم العز، وعالم الفقر، وعالم الغنا، وعالم الحق، وعالم الدعاء، وعالم الخلق، وعالم الأمر، وعالم الجن، وعالم الشياطين إلى غير ذلك من العوالم فهي الدار الجامعة، والحضرة

الشاملة بجميع ما أعطته جميع الأسماء والخليفة من حيث ما هو خليفة لا بد أن يظهر بصورة المستخلف له.

ولهذا قال: «**إن الله خلق آدم على صورته**»[(١)].

وجمع له بين يديه لما أنشأه ليكون قوياً في سلطانه بتأمل جبلته حيث ظهرت عن اليدين ثم إنه حصّل علم الأسماء بحقيقته أيضاً فلم تتعين خلافة في العالم إلاّ له. فالإنسان الكامل هو حاجب الحق في عالمه والنائب عنه فيهم فيصرف فيهم أسماءه بحسب ما يُعطيه المحكوم عليه. فهو يتجلى للعالم في صورة مختلفة.

فتارة يظهر في صورة العزيز، وهو ظهور ذاتي له شامل، وتارة في صورة الرحمة، وتارة في صورة الشدة والقوة، وتارة في صورة الانتقام والقهر، وتارة في صورة المغفرة والحلم، وفي صورة العفو، وفي صورة اللطف، وفي صورة الفرح، وفي صورة التعجب، وفي صورة البشاشة.

والمقصود أن الحضرة الجامعة الشاملة لجميع الأسماء الإلهية كما هو جامع بحقائق الأكوان كلها. فبجمعيته لحقائق الأكوان يعرف مصادر الأكوان ومواردها، وكيفيات حركاتها وسكناتها، وأنفاسها وما يكون لها ومنها لأنها هو، وهو هي. ولجمعية الأسماء الإلهية كان له الحكم عليها والتصرف فيها وكان لها الانقياد إليه والالتفات لجنابه كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجَاثِيَة: ١٣] فقوله: «منه» من جهة الأسماء، ولم يوجد هذا الأمر في غير الأرض. فإن السموات العُلَى عالم تقديس وتنزيه لا عالم تدنيس وتشويه. وعالم دار الجنة عالم سعادة وكشف. وعالم دار النار دار شقاوة وحجاب. وعالم البرزخ عالم مثال لا عالم حقيقة، وما ثم محل آخر أصلاً إلا دار الدنيا. فإن الأرواح المفارقة لا تصلح لعالم الأجسام، ولا يظهر كمال الأسماء إلاّ بالروحانيات والجسمانيات فلا بد من السطوتين، ولا بد من الرحمتين. ففيهما كمال الوجود من حيث الخلافة. فلا بد من الأرض أن تكون مسكن الخليفة إلى أن يخلع هذه الخلعة، وينزل عن كرسي النيابة ويتولى الحق تعالى عباده على الكشف منهم لذلك.

فلهذا كان جعله خليفة في الأرض دون السماء. وأمّا إطاعة الملائكة الله والامتثال للأمر بالسجود دون إبليس وقد شمله الخطاب معهم بعد قولهم فيه ما جاء به نص القرآن في قوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البَقَرَة: ٣٠].

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

لكونهم رأوه مركباً من الأضداد، ولا بد للضد أن ينازع ضدّه فقالوا حقاً ونطقوا صدقاً، وكذا وقع في الأمر في عالم الأنس لكن غاب عنهم سر القتل المشروع والفساد المشروع من غير المشروع والصورة واحدة والحكم مختلف من أجل الوضع ومن أجل النزول الحق. ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًاۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٥] في الصورة. فإذا ذاقوا عرفوا الفرق والميز. وما حجب القلب عن دركه سواك فحكموا بما تعطيه النشأة، وغابوا عن الاختصاص، وظهر ما قالوه من الفساد في الأرض وسفك الدماء على يدي هذه النشأة. فلما صحت لهم التلمذة وصحت لهم الشيخوخة والأستاذية عليهم دون إبليس حيث لم يحضر معهم هذا الموطن كان هذا من الأسباب المعينة لسرعة الامتثال عند ورود الأمر بالسجود له، ولأن حقائقهم لا تعطي المنازعة والمخالفة، ولذا ربّما سُمُّوا عالم الأمر، وليس عندهم نهي أصلاً حتى لا تختلف الكلمة فيهم. فهم الأمر المحض والخبر المحض وهم في اللذة المحضة، خلقوا في مقاماتهم المعلومة فلم يكن لهم نزق، فإن في النزقي تشوش ومكابدة، فهم المصونون فلم يكن مانع يمنعهم من المبادرة لامتثال الأمر، ولم يكن أيضاً هذا المأمور له بالسجود من جنسهم كما قال تعالى: ﴿لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥].

وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩] يعني الرسول.

فلا يكبر على غير الجنس خدمة من ليس من جنسه فإنه ليس فيه حظ في مرتبته، وعلى قدر ما يقرب المشاركة في الجنسية تقع الإباية والحسَد. هذا هو المعروف من الحقائق فيما يعطيه عالم الأمشاج والظُلَم. فاجتمع لإبليس أمرين:

ـ الواحد: أنه لم يحضر موطن التعليم فيلزمه الخبر به بحكم العلم.

ـ وهو في الجنس لأنه من العالم العنصري، وإن كان الغالب عليه النار، وغلب ناره على نوره. فإن له في التوراة صورة من حيث النفخ الشامل له ولغيره من عالم العناصر. كما أن آدم في العالم العنصري، وإن كان الغالب عليه الطين، فنوره غالب على طينه. فكان العالم المطيع. فلهذا القرب النسبي والجنسية وقعت الإباية والحسد. وأخذ يُفضل بعض العناصر على بعض، ولا مفاضلة فيها أَلْبَتَّة من حيث الذات لأن

كل ذات على حقيقتها، وإن كان بينهما الأمر الجامع وهي اليبوسة ولكن لما لم يجعله تراباً وجعله طيناً، وهو امتزاج الماء بالتراب. نظر إلى عنصر الماء الذي هو نقيض ما افتخر به، فأخذ يصادمه مصادمة الضد. فلهذا وقعت الإباية منه، ولحق بالآخرين إلى يوم الدين. فهو العدوّ بالطبع، الناصح بالعَرَض. فانظروا يا إخواننا ما لشرف الإنسان.

وأمّا المخالفة التي وقعت من هذا الخليفة فلم تقع منه من حيث ذاته، ولا من حيث مرتبته. وإنما وقعت من حيث أنه كان حاملاً للموافق وللمخالف، وقبضه جامعاً للطائع والعاصي فتحرك النسب المخالف منه بالمخالفة لأن الجنة ليست موطنه فهو يتضرر بها كما يتضرر رياح الورد بالجعل فكانت سبباً لخلافته، وتميز القبضتين منه في دار المزج، فانقلب فريق السعادة إلى الجنة وفريق الشقاوة إلى النار، حتى لو رام أهل النار الذين هم أهلها أن يدخلوا الجنة ما استطاعوا، ولسارعوا إلى النار مسارعة الحديد إلى المغناطيس، وكذلك أهل الجنة. وهذا لا يعرفه إلاّ طائفتنا لا غير.

وقد أشار النبي ﷺ إشارة لطيفة إلى ذلك علمها من علمها: «**إنكم لتقَحّمون في النار، وأنا آخذٌ بحجزكم، وأنتم تأبون**»[1].

وأخبرنا ثقات أن ببلاد اليمن طائفة يُسَمُّون أولاد أم عيسى، إذا عاينوا الضبع لا يتملكون أن يرموا أنفسهم عليه حتى يأكلهم.

ورأيت من صلاّحهم بمكة رجلاً وهو انزعاج يقتضيه طبعهم المناسب المنجذب إليه كذلك أصحاب النار.

فافهموا فإن الأسرار لا تحتمل فوق هذا الكشف رتبة فكانت مخالفة حكمة لنهي حكمة، لا مخالفة حكم لنهي حكم.

وانتهى الغرض بمنّه.

والله يتولانا وإياكم بما يتولى به عباده الصالحين.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب قول النبي ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم...**» حديث رقم (٦١١٨) [ج٥ ص٢٣٧٩] ومسلم في صحيحه، باب شفقته ﷺ على أمته..، حديث رقم (٢٢٨٤) [ج٤ ص١٧٨٩] ورواه غيرهما ونص رواية مسلم هي:

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقحمون فيه**».

[كتبها لنفسه أحمد أبي بكر وهو حامد لله تعالى على نعمه لسبع خلون من رمضان سنة واحد وعشرين وثمان مائة من نسخة مكتوبة بحضرة مُنْشِئها وكان معتكفاً بجامع دمشق في النصف من شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين وستمائة.

والكاتب أيوب بن لاشين صور وقرأ عليه قدس الله سرّه في العشر الليالي من ذي الحجة من سنة إحدى وعشرين وستمائة وعليه خطه رضي الله عنه هكذا صحّ ما ذكره وكتب المسني في تاريخه.

بلغت المقابلة على النسخة المذكورة لخمس بقيت من شهر شوال سنة ثلاث وعشرين وثمان مائة][١].

(١) ما بين معقوفتين من كلام الناسخ كما هو واضح.

رسالة الوقت والآن

تأليف

الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن محمد

ابن عربي الحاتمي

المتوفى ٦٣٨هـ

اعتنى به

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الحمد لله ولي الحمد ومستحقه، وصلى الله على سيدنا (محمد) صفوته من خلقه وآله وصحبه وسلّم.

اعلم أيّها الأخ الموفق السعيد، بعناية الله الحميد المجيد، أنّ مدار طريق أهل الله، وهم السادة الصوفية الموصل إلى الله تعالى، على حفظ الوقت، والقيام بحكمه ومرسومه، وهذا الوقت الذي وقع عليه اصطلاح الصوفية، من الأمور الدقيقة الغامضة التي لا يتنبه لها، إلاّ المؤيد بنور البصيرة القدسية، والمنصور بعناية الحضرة العلية، والحقيقة الإلهية، والمراد به وقت المريد السالك الرامي إشارته إلى الحق، عن قوس صدق العزيمة السائرة على ضوء مصباح اليقظة، أو على ضوء مصباح الكشف الصادق، ولا يزال هذا الوقت مشهداً في باب السلوك، مصاحباً للسالك، حتى يفنى رسم السالك في وجود الحق، ثم يحققه بفني رسم الوقت بالحق، ومن هنا قال المتقدمون من علماء الحق:

«إنّ الوقت هو الحق لاستغراق رسمه في الحق»، وقد كشف لنا الحق في الوقت أمراً جليلاً ذكرناه في الجزء الثاني من كتاب (السر الأحدي) وتلخيصه: إنّ الوقت واحد مشهد، لكنه يختلف بحسب اختلاف المقامات، والمقصود هاهنا: ذكر وقت المريد الصادق فهو برزخ بين الجلال والجمال، وهو باطنه وباعثه إلى نعت الجمال، وإلى نعت الجلال على السواء، وذلك أنّ وقت المريد هو آنٌ من الفرد الأحد، الذي هو أجلّ أن يُعبّر بوقت، لنزاهته عن الوقت، وسابقيته على الإلهية والفناء والبقاء في شأن الخلق الجديد، المشار إليه بقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

فالمريد الصادق محتجب في الوقت من أجل المؤقّت، بالقيام فيه بحق العبودية للحق على الحضور، وهو في عين ذلك الوقت ملاحظ لنعت الجمال واللطف، ولنعت الجلال والقهر على السواء، فإما كونه ملاحظاً لنعت الجمال واللطف، فهو من كونه

مخصصاً في عين ذلك الزمن الفرد بالوجود، الذي اقتضى الحق منه القيام بالعبودية فيه، التي أوجده لها، ويشهد ذلك من لطف الحق به، ومراعاته إياه، وحسن توجهه إليه، في عين ذلك الزمن الفرد، وأما ملاحظته لنعت الجلال في عين ذلك الوقت الدقيق، فهو من حيث ملاحظته بسلب وجوده، العائد لله في عين ذلك الوقت بالعبودية، فإنّ وجود الكائنات كلها، إنما هو ثوب معار عليها بتخصيص من الحق، ينزعه مالكه إذا شاء بأسرع وقت، فلهذا قلنا لك: إنّ وقت المريد الصادق برزخ بين الجلال والجمال، فهو لا يشهد في الزمن الفرد العالم فيه لله بالعبودية، إلاّ مسألة الجواز بين وجوده وعدمه في عين ذلك الوقت وإلى ذلك الإشارة بقولهم: «الصوفي ابن وقته».

فهو وإن كان مخصصاً في عين ذلك الوقت بالوجود العالم بالعبودية، فهو لا يحكم على الحق باستمداد الوجود إلى ما فوق ذلك الوقت، الذي هو فيه بالوجود، وإن شاء سلب عنه الوجود في عين ذلك الزمن، فالمريد عميٌّ عن غير ذلك الوقت الدقيق في التحقيق، فيقوم لله في عين ذلك الوقت الدقيق، بعبودية مودّع على حسب ما يعطيه تحققه في مقام الإشارة، قال عليه السلام: «**إذا صليت، صلِّ صلاة مودع**»[١].

وهو الذي لا يرى له وجوداً أبداً على عين وقته الدقيق، الذي هو فيه بالتحقيق، فإذا كانت عبودية المريد عبودية مودّع في مقام الإحسان، الذي أشار إليه بقوله عليه السلام: «**اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك**»[٢].

وهو مقام المراقبة والحضور، بالمحبة والأدب، حصل الأرب، ونجح القصد، وانطوى رسم الوقت في عين الحق، وهذا هو الصوفي، الذي هو ابن وقته. وقد ورد في الحديث حين سئل: من أسعد الناس يا رسول الله؟ قال: «**أسعد الناس من لم ينسَ المقابر والبلى، وعدّ نفسه من الموتى، ولم يحسب من أيامه غداً**»[٣].

---

(١) رواه ابن ماجة في سننه، باب الحكمة، حديث رقم (٤١٧١) [ج٢ ص١٣٩٦] وأحمد في المسند، حديث أبي أيوب الأنصاري، حديث رقم (٢٣٥٤٥) [ج٥ ص٤١٢] ورواه غيرهما.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، باب سؤال جبريل النبي ﷺ...، حديث رقم (٥٠) [ج١ ص٢٧]. ومسلم في صحيحه، باب بيان الإسلام والإيمان والإحسان، حديث رقم (٨) [ج١ ص٣٦]. ورواه غيرهما.

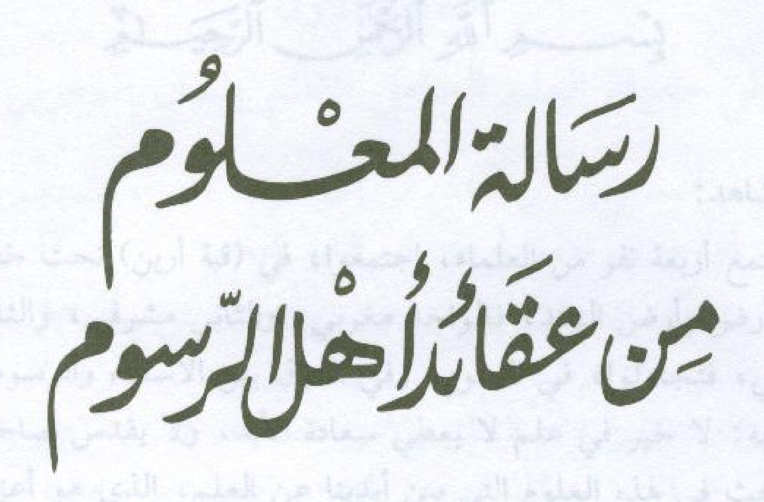
(٣) لم أجده بهذا اللفظ فيما لدي من مصادر ومراجع إنما ورد بلفظ: «**لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع**» سنن الترمذي، حديث رقم ٢٢٠٩ [ج٤ ص٤٩٣] وروى الحديث غير الترمذي.

وهو عين ما ذكرناه؛ فإن قوله ﷺ: «**ولم يحسب من أيامه غداً**» بقيّ أوقاته الدقيقة الفردية، التي له عند الحضور في الحقيقة، فإنّ من عدّ نفسه في عين كل وقت دقيق من الموتى، فهو ملاحظ عدمه في الزمن الفرد، ملحوظ من باب نعت الجلال، وإنما ذكر ﷺ الأيام؛ لكونه مشرِّعاً متكلّماً عن العامة، فالكلام الجامع الذي يعطيهم مشربه من حيث عمومه، ويعطي ذا الحاجة مشربه من حيث خصوصه.

وهذا مطّرد في كلام الله، وفي كلام رسوله؛ فإنّ الحاجة لا تقع عندهم إلاّ أيام الرب، التي هي الشهور الإلهية في متعلقاتها؛ لكونهم طالعوا سر الألوهية في المخلوقات، وفرض فعل القدرة وانفعالها في الزمن الفرد، فلم يقع عندهم من العبارة المحمدية والأمر المطابق للمعنى الإلهي.

وأما العامة، فأخذوا اللفظ من حيث عمومه، وساغ لهم مشربه من هذه الحيثية، لتوسع الرحمة المنزلة إليهم، المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبيَاء: ١٠٧]. فاعلم هذا أيها الأخ الموفق السعيد، واحفظ الوقت المشار إليه.

﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٍ مِّنۡ خَلۡقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]، فإنّ السر كله في حفظ الوقت، والقيام بحكمه ومرسومه، فافهم هذه النكة الصغيرة، فإنّها جليلة القدر، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل، والحمد لله وحده وصلّى الله على سيدنا (محمد) وعلى آله وصحبه بعده، وعلى أتباعه وجنده وسلّم.



تأليف

الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن محمد

ابن عربي الحاتمي

المتوفى ٦٣٨هـ

اعتنى به

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الشاهد:

إنه اجتمع أربعة نفر من العلماء، اجتمعوا، في (قبة أرين) تحت خط الاستواء، في وسط الأرض بأرض الهند، فالواحد مغربي، والثاني مشرقي، والثالث يماني، والرابع شامي، فتجاولوا، في العلوم، وفي الفرق بين الأسماء والرسوم. فقال كل واحد لصاحبه: لا خير في علم لا يعطي سعادة الأبد، ولا يقدس صاحبه عن تأثير الأمد، فلنبحث في هذه العلوم التي بين أيدينا عن العلم، الذي هو أعز ما يطلب، وأفضل ما يوهب ويكتسب، وأسنى ما يحفظ، ويدخر، وأعظم ما به يفتخر. فقال المغربي:

عندي من هذا العلم، العلم القائم الحامل، وقال المشرقي: ـ عندي من هذا العلم، العلم بالحامل المحمول اللازم، وقال الشامي: ـ عندي من هذا العلم، علم الإبداع والتركيب، وقال اليماني: ـ عندي من هذا العلم، علم التخليص والتركيب، فقال المغربي: ليُظهر كلٌ منا ما وعاه، وليكشف حقيقة ما ادعاه.

الفصل الأول

في معرفة العلم الحامل القائم بلسان المغربي

قال الإمام المغربي: ـ لي التقدّم من أجل مرتبة علمي، فالحكم في الأوليات حكمي. فقال أصحابه: ـ تكلّم وأوجز وكن البليغ المعجز.

فقال: ـ اعلموا أنه ما لم يكن ثم كان، واعتدلت في حقه الأزمان، ثم قال: فالمكون يلزمه في الآن ثم قال: كل ما لا يستغني عن أمر ما، فحكمه حكم ذلك الأمر، ولكن إذا كان من عالم الخلق والأمر، فليصرف الطالب النظر إليه، وليعول الباحث عليه. ثم قال: من كان الوجود يلزمه، فإنه يستحيل عدمه، والكائن ولم يكن، يستحيل قدمه، ولو لم يستحل عليه العدم؛ لصحة المقابل في القدم، فإن كان المقابل لم يكن، فالعجز في المقابل مستكن، وإن كان، فيستحيل على هذا الآخر الحديث الصحيح: «**كان الله ولا شيء معه**»[1]، كان ومحال أن يزول بذاته لصحة الشرط وأحكام الربط. ثم قال: وكل ما ظهر عينه ولم يوجب حكماً، فكونه ظاهراً محال، فإنه لا يفيد علماً. ثم قال: ومن المحال تعمير المواطن؛ لأن رحلته في الزمان الثاني، ومن زمان وجوده لنفسه، وليس بقاطن، ولو جاز أن ينتقل، لقام بنفسه، واستغنى عن المحل، ولا يعدمه ضد لاتصافه بالفقد، ولا الفاعل فإنّ قولك فعل لا شيء، لا يقول به عاقل. ثم قال: من توقف وجوده على فناء شيء فلا وجود له، حتى يفنى، فإن وجد، فقد فني ذلك الشيء المتوقف عليه، وحصل المعنى. مَن تقدمه شيء فقد انحصر دونه وتقيد، ولزمه هذا الوصف، ولو تأيّد، فقد ثبت الأين بلا مَين ثم قال: ولو كان حكم المسند إليه حكم المسند، لما تناهى العدد، ولا صحّ وجود من وجِد. ثم قال: ولو كان ما أثبتناه يخلي ويملي، لكان يبلى ولا يُبلى. ثم قال: ولو كان يقبل التركيب لتحلل، والتأليف لاضمحل. وإذا وقع التماثل، سقط التفاضل. ثم قال: ولو كان يستدعي وجود سواه ليقوم به، لم يكن ذلك السوى مستنداً إليه، وقد صحّ استناده، فباطل أن يتوقف عليه وجوده، وقد قيّده إيجاده. ثم قال: وصف الوصف محال، فلا سبيل إلى هذا العقد بحال. ثم قال: الكُرة وإن

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

كانت فانية، فليس لها ناحية، إذا كانت الجهات إليه، فحكمها عليه، وأنا منها، خارج عنها، وقد كان ولا أنا فَفِيمَ التشعبث والعنا؟.

ثم قال: كل من استوطن موطناً، جازت رحلته، وثبتت نقلته، من حاذى بذاته شيئاً، فإنه يحده التثليث ويقدره، هذا يناقض ما كان العقل أولاً يقرره.

ثم قال: لو كان لا يوجد شيء إلاّ عن مستقلين اتفاقاً واختلافاً، لما رأينا في الوجود افتراقاً وائتلافاً، والمقدر حكمه حكم الواقع، فإذاً التقدير هنا للمنازع ليس بنافع.

ثم قال: إذا ثبت الشيء هنا في عينه، جاز أن يراه العين بعينه المقيدة بوجهه وجفنه، وما ثم علّة توجب الرؤية في مذهب أكثر الأشعرية، إلاّ الوجود بالبينة وغير البينة، ولو كانت الرؤية تؤثر في المرئي لأحلناها، فقد بانت المطالب بأدلتها كما ذكرناها.

ثم صلّى وسلّم بعدما حمد، وقعد، فشكره الحاضرون على إيجازه في العبارة واستيفائه المعاني في دقيق الإشارة.

الفصل الثاني
في معرفة الحامل المحمول اللازم بلسان المشرقي

قال المشرقي: تكوين الشيء من الشيء مثل، وتكوينه لا من شيء اقتدار الأزل، من لم يمتنع عنك فقدرتك نافذة فيه ولم تزل.

ثم قال: إيجاد أحكام في محكم يثبت بحكمه وجود علم المحكم، ثم قال: والحياة والإرادة في العالم شرط لازم ووصف قائم.

ثم قال: الشيء إذا قبل التقدّم والمناص، فلا بد من مخصص لوقوع الاختصاص، وهو عين الإرادة، في حكم العقل والعادة. ثم قال: ولو أراد المريد بما لم يكن، لكان ما لم يكن مراداً بما لم يكن.

ثم قال: من المحال أن توجب المعاني أحكامها، إلاّ لمن قامت به، فانتبه.

ثم قال: مَن تحدّث في نفسه بما مضى، فذلك الحديث ليس بإرادة، وبه حكم الدليل على الكلام وقضى.

ثم قال: القديم لا يقبل الطارىء، فلا تمار، ولو أحدث في نفسه ما ليس منها، لكان بعدم تلك الصفة ناقصاً عنها، ومن ثبت له الكمال بالعقل والنص، فلا يُنسب إلى النقص.

ثم قال: لو لم يبصرك ويسمعك، لجهل كثيراً منك، ونسبة الجهل إليه محال، ولا سبيل إلى نفي هاتين الصفتين بحال، ومن ارتكب القول بنفيهما، ارتكب مخوفاً لما يؤدي إلى كونه مؤوفاً ثم قال: من ضرورة الحكم أن يوجبه معنى، كما من ضرورة المعنى الذي لا يقوم بنفسه استدعاء معنى. فيا أيها المجادل كم ذا تتعنّى؟ ما ذاك إلاّ لخوفك من العدد، وهذا لا يبطل حقيقة الواحد والأحد، ولو علمت أنّ العدد هو الأحد لما شرعت في منازعة أحد، فهذا قد ثبت عن الحامل المحمول العارض واللازم في مقاسم هذه المعالم، ثم قعد.

الفصل الثالث
في معرفة الإبداع والتركيب باللسان الشامي

قال: إذا تماثلت المحدثات، وكان تعلّق القدرة بها لمجرّد الذات، فبأي دليل يخرج عنها بعض الممكنات. ثم قال: لما كانت الإرادة تتعلّق بمرادها حقيقة، ولم تكن القدرة الحادثة مثلها لاختلال في الطريقة، فذلك هو الكسب، فكسب للعبد وقدرة للرب، وتبيين ذلك بالحركة الاختيارية والرعدة الاضطرارية. ثم قال: القدرة من شروطها الإيجاد إذا ساعدها العلم والإرادة، فإيّاك والعادة! كل ما أدّى إلى نقص الألوهية، فهو مردود، ومن جعل في الوجود في الحادثات ما ليس بمراد الله، فهو من المعرفة مطرود وباب التوحيد بوجهه مسدود، وقد يريد الأمر ولا يراد المأمور به، وهو الصحيح، وهذا غاية التصريح.

ثم قل: مَن أوجب على الله أمراً، فقد أوجب عليه حد الواجب، وذلك على الله محال في صحيح المذاهب. ومن قال بالوجوب لسبق العلم، فقد خرج عن الحكم المعروف عند العلماء في الواجب، وهو صحيح الحكم.

ثم قال: تكليف ما لا يطاق جائز عقلاً، وقد عاينا ذلك شهادة ونقلاً.

ثم قال: من لم يخرج شيء على الحقيقة من ملكه، فلا يتصف بالجور والظلم فما يجزيه من حكمه في ملكه.

ثم قال: من هو مختار فلا يجب عليه رعاية الأصلح، وقد ثبت ذلك وصحَّ التقبيح والتحسين بالشرع والغرض.

ومن قال: إنّ الحسن والقبح لذاتهما فهو صاحب جهل عرضي.

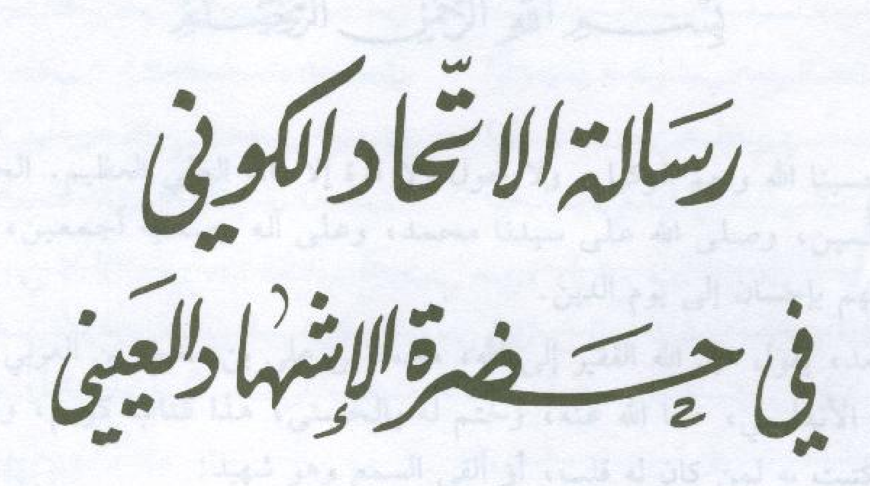
ثم قال: إذا كان وجوب معرفة الله تعالى وغير ذلك، من شرطه ارتباط الضرر بتركه في المستقبل، فلا يصح الوجوب بالعقل؛ لأنه يعقل. ثم قال: إذا كان العقل يستقل بنفسه في أمر، وفي أمر لا يستقل، فلا بد له من موصل إليه مستقل، فلم تستحل بعثة الرسل، وأنّهم أعلم الخلق بالغايات والسبل. ثم قال: لو جاز أن يجيء الكاذب بما جاء به الصادق، لانقلبت الحقائق، ولتبدلت القدرة بالعجز، ولاستند الكذب إلى حضرة العز، وهذا كله محال، وغاية الضلال، بما يثبت الواحد، يثبت الثاني، في جميع الوجوه والمعاني.

الفصل الرابع

في معرفة التلخيص والترتيب باللسان اليمني

ثم قال اليمني: مَن أفسد شيئاً بعدما أنشأه، فجائز أن يعيده كما بدأه. ثم قال: إذا قامت الصفة الروحانية بجزء ما من الإنسان، فقد صحّ عليه اسم الحيوان، النائم يرى ما لا يرى اليقظان، وهو إلى جانبه لاختلاف مذاهبه، مَن قامت به الحياة، حاز اللذة والألم، فما لك لا تلتزم؟ ثم قال: البدل من الشيء يقوم مقامه، ويوجب أحكامه. ثم قال: مَن قدر على إمساك الطير في الهواء ـ وهي أجسام ـ قدر على جميع الأجرام.

ثم قال: قد كملت النشأة، واجتمعت أطراف الدائرة قبل حلول الدائرة. ثم قال: إقامة الدين هو المطلوب ولا يصح إلاّ بالإمام، فاتخاذ الإمام واجب في كل زمان. ثم قال: إذا كملت الشرائط، صحّ العقد، ولزم العالم الوفاء بالعهد، وهي: الذكورية، والبلوغ، والعقل، والعلم، والورع، والحرية، والنجدة، والكفاية، والنسب، وسلامة جانب السمع والبصر، وبهذا قال بعض أهل العلم والنظر. ثم قال: إذا تعارض إمامان، فالعقد للأكثر اتباعه، وإذا تعذّر خلع إمام ناقص لتحقق وقوع فساد شامل، فإبقاء العقد واجب، ولا يجوز إرداعه، قال الشاهد: فوفى كل واحد من الأربعة ما اشترط، وانتظم الوجود وارتبط. والله الموفق لما يريده ويرضاه، وصلى الله على سيدنا محمد، الشافع في الأمة ونبي الرحمة، وسلّم تسليماً.



تأليف

الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن محمد

ابن عربي الحاتمي

المتوفى ٦٣٨هـ

اعتنى به

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد، يقول عبد الله الفقير إلى الله، محمد بن علي بن محمد بن العربي الطائي الحاتمي الأندلسي، عفا الله عنه، وختم له بالحسنى، هذا كتاب كريم، وخطاب جسيم، كتبت به لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد:

[المنسرح]

من انتقاصي إلى كمالي   من انحرافي إلى اعتدالي
ومن سناي إلى جمالي   ومن سنائي إلى جلالي
ومن شتاتي إلى اجتماعي   فمن صدودي إلى وصالي
ومن خسيسي إلى نفيسي   فمن حجار إلى اللآلي
ومن شروقي إلى غروبي   فمن نهاري إلى الليالي
ومن ضيائي إلى ظلامي   فمن هداي إلى ضلالي
ومن حضيضي إلى استوائي   فمن زجاج إلى العوالي
ومن دخولي إلى خروجي   فمن محاقي إلى هلالي
ومن طلابي إلى نفوري   فمن جوادي إلى غزالي
ومن نسيمي إلى غصوني   ومن غصوني إلى ظلالي
ومن ظلالي إلى نعيمي   ومن نعيمي إلى محالي
ومن محالي إلى مثالي   ومن مثالي إلى محالي
ومن محالي إلى صحيحي   ومن صحيحي إلى اعتلالي
فما أنا في الوجود غيري   فما أعادي وما أوالي

وما أنادي على فؤادي | من أجل رام ماضي النصالِ
فإن رامي النصالِ جفني | إلى فؤادي بلا نبالِ
فما أحامي على مقامي | وما أمالي فما أبالي
فإنني ما عشقت غيري | فعين فصلي هو اتصالي
فلا تلمني على هواي | فلست عن هاجري بسالي
فظاهري عاشق وسري | معشوق قلبي على التوالي

وإني لا أزال في هذا الكتاب أُخاطبني عني، وأرجع فيها إليّ مني، فمن سماي إلى أرضي، ومن سنّتي إلى فرضي، ومن إبرامي إلى نقضي، ومن طولي إلى عرضي، ولهذا أقمت القسطاس، وراقبت الأنفاس:

[الهزج]

فمن حسي إلى عقلي | ومن عقلي إلى حسي
بعلمين غريبين | بلا شك ولا لبسِ
ومن نفسي إلى روحي | ومن روحي إلى نفسي
بتحليل وتركيب | كمثل الميّت في الرمسِ
ومن حدسي إلى علمي | ومن علمي إلى حدسي
فنور العلم ممدود | ونور الحدس ما يمسي
ومن قدسي إلى رجسي | ومن رجسي إلى قدسي
فقدسي كان في وقتي | ورجسي كان في أمسي
ومن إنسي إلى جني | ومن جني إلى إنسي
فجني يبتغي همّي | وإنسي يبتغي أُنسي
ومن حبسي إلى سعتي | ومن سعتي إلى حبسي
لنكر قام في نفسي | على عقلي وبالعكسِ
ومن أيسي إلى ليسي | ومن ليسي إلى أيس
يُستعلد فإليه تألّيف | كما في شته نحسي
ومن جنسي إلى ضدي | ومن ضدي إلى جنسي
فلولا (باقل) ما لا | ح نور الفضل في (قسٍّ)

ومن شمسي إلى بدري ... ومن بدري إلى شمسي
لإظهار الخفايا في ... بطون نواشيء دبس
ومن فرس إلى عرب ... ومن عرب إلى فرس
لشرح قوام أسرار ... ورمز حقائق نكسِ
ومن أُسي إلى فرعي ... ومن فرعي إلى أُسي
لعيش دُسّ في موتٍ ... بحسٍّ أو بلا حس
فلا تهتم يا نفسي ... بقول الحاسد النكسِ
وقول الجاهل المغرور ... يا ريحانة الأنسِ
فكم من جاهلٍ قد قال ... في أرواحنا الخرسِ
لدى تنزيل تنزيلي ... بروح النفث والحبسِ
كأُنس فيه شيطانٌ ... يُتخبّطه من المسِ
فإنّ الناس ما زالوا ... من التحقيق في لبسِ
فسر الله موجودٌ ... مبين الجهر والهمسِ
وجود الحق عين الخلق ... قبل الروح والنفسِ

وسميت هذه الرسالة بـ(الاتحاد الكوني في حضرة الإشهاد العيني، بمحضر الشجرة الإنسانية والطيور الأربعة الروحانية)، خاطبت بها أبا الفوارس (صخر بن سنان)، مالك أزمّة الجود والبيان، ولكل أهل العرفان. وهذه أول الرسالة، وبالله أستعين، فهو المؤيد سبحانه وتعالى والمعين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلى الله على الرؤوف الرحيم، إلى الثالث والثاني، ورب المثالث والمثاني، والمشار إليه في المثاني، القاصر الفاني، والسائر الثاني، الناكص لظلّه، والناكس لذله، الجواد الذي لا يقبل جوده، والموجود التام الذي جهل وجوده، المنبعث من الثنتين، والمبعوث بالقوتين، معتمد الأركان وجه ومعتد الإمكان، ومستند المكان، رقيقة الآن، وحقيقة الزمان، ومنتهى الأمان، ومستوى الرحمن، ودقيقة المان، وسلطان الإنس والجان، جان بن جان، الإنسان في الإنسان، الواهب المحسان، أبو الفوارس صخر بن سنان، مالك أزمّة الجود والبيان، استوهب الله له من المواهب القدسية أسهلها وأحلاها، ومن المراتب المؤسسة أكملها وأعلاها، سلامٌ طيبٌ أثيرٌ مباركٌ يخص مقامكم الرفيع أتمه وأزكاه، ورحمة الله تعالى وبركاته ورضاه. أما بعد فإني أحمد الله إليّ، الذي سوّاني وعدلني، وفي صورة أحسن تقويم ركبني، ثم عرّفني بي، وأظهرني لي، فعشقتُني، فلا أحب سواي، وهُيّمت فيَّ بين بعدي وقربي، فما أخاطب إلاّ إياي، وقلت في شأني على لساني، مما أعاني من المعاني أني:

[المنسرح]

فلو رآني إذا أتاني سراً وجهراً أنا بذاتي
وقلتُ أنعمْ فقال طوعاً وكان مني لي التفاتي
فُنيتُ عني بعين أني وعن عداتي وعن ثقاتي
وعن وعيدي وعن مزيدي وعن نعيمي وعن عداتي
وعن شهيدي وعن شهودي وكنت لي بي نعم المؤاتي
فيا أنا رُدّني بعيني إليَّ حتى أرى ثباتي
فرَدني بي إليّ مني فلم يقم بي سوى صفاتي
فصال كفي على عصايَ وصال عودي على صفاتي
فسال نهر البروج منها عشراً وثنتين مُعلَماتِ

فقلت لي يا أنا فزدني — مني ثباتاً على ثباتي
هذي علوم الحياة لاحت — على وجودي من النباتِ
فأين مسرى اللطيف مني — ما أودع الله في الذواتِ
فزدتني ما طلبت مني — فدام شوقي إلى مماتي
فصرت أشكو الغرام مني — إليّ كيما تبدو سماتي
إلى جفوني من عين كوني — فزاد جمعي على شتاتي
وصلتُ ذاتي توجداً بذاتي — من أجل ذاتي مدى حياتي
ولم أعرّج على جفائي — وطول هجري وسيئاتي
أنا حبيبي أنا محبي — أنا فتايَ أنا فتاتي

أما بعد الكتاب إليّ من المدينة الممكنة بالاستواء، والمعينة في المستوى، والمحصنة بالقوى، طور سينين، والبلد الأمين، المسوّى من الماء والطين، والجامع بين أحسن تقويم، وأسفل سافلين، معرّفاً إيّاي بما طرأ بيني وبيني، وما شاهده كوني من كوني؛ وذلك أنّه لما رُفعت لنا أعلام المشاهدة، ووضعت عنا الأم المجاهدة، وصار التجاري بحكم الموافقة والمساعدة، امتطوت براق الهمة، وخرجت عن كون هذه الغمة، فوقعت في بحر الهيولى، فعاينتُ الآخرة والأولى، فقلت: تباً لمنكري الجنان، والدار الحيوان، وملاعبة الولدان، ومعانقة الحور الحسان، ولصوق الأبدان بالأبدان، من عاين الحافظ أثبت اللافظ، فإنّ خط الاعتدال غير ميّال، وعرفت هناك أنّ منكري حشر الأجساد ما برحوا من الميلين، وما انفكوا من ربقة الأربعة والاثنين، ثم صحتُ واحرباه! واحر قلباه! من الكيان هربت، وها أنا فيه، فأين ما طلبت؟ فسمعت الخطاب مني، لا داخلاً فيّ ولا خارجاً عني، وهو يخبرني أنّي على المدرجة، فكيف تطلب الدرجة؟ أين أنت والاستواءات؟ أين أنت والاتكاءات؟ أين أنت والرفارف العُلى؟ أين أنت والأفق الأعلى؟ أين أنت وحجب البهاء؟ أين أنت والستر الأزهى؟ أين أنت والعمى؟ أين أنت وحجاب العزّة الأحمى؟ أين أنت والهويات المطلقة؟ أين أنت والأنيات المحققة؟ أين أنت وحضرة الإشارات؟ أين أنت والمحادثات؟ أين أنت والمسامرات؟ أين أنت والشجرة العلى؟ أين أنت والفروع الدنى؟ أين أنت والغريبة العنقاء؟ أين أنت والمطوقة الورقاء؟ أين أنت والغراب الحالك؟ أين أنت والعقاب المالك؟ يا محجوب كيف تسأل بالأين عن العين؟ وأنت مقام لا يحتمل المين؟ فقلت أيها الزاجر! لقد أكملت، أما علمت أنك من مقامك

تكلّمت؟ أنت في حضرة العين، معرّى عن الآن والأين، وأنا في هذه اللجة العمياء، والدلجة السوداء، والداهية الدهياء، معدن المين والريب، ومحل النقص والعيب، وهل يصيح واحرباه! الا أسير الكم وحبيس الحكم؟ فإن أنت أخرجتني من بين تلاطم هذه الأمواج، وأرحتني من معاناة هذا الليل الأليلي الداج، فإني لا أفوه بطرف، ولا أعرّج على حرف، فجذبني جذبة عزيز مقتدر، وقال: إنك مغلوب فانتصر، فقلت: أنتصر بيدك اليمنى، من كلتا يديك يمين، فإنّه القوي الأمين، والوفي الذي لا يمين فقال: كيف يهجوني من يرجوني؟ فقلت: كما يمدحك من يمنحك؟ فلما جذبني، رأيتني في غير الصورة التي فيها كنت، وقد ثبتُّ فيها وتمكّنت، فقلت: يا أنا! فقال أنا: مرحباً فقلت: لا مرحباً ولا أهلاً، ولا سعة ولا سهلاً! فقال: يا قرّة العين! ما رأيك؟ ويا أسير الكون! ما أصابك؟ فقلت: كم ذات تحجبني عني؟ فاكشفني لي حتى أعرفني، هذا الوحي ممدود، ولوائي معقود، وعلمي محدود، ومقامي محمود، وسري مشهود، ولُبي موجود، ومطلوبي مفقود، وأنا في عالمي معبود، أُدعى كلمة الوجود، فلو فُنيتُ هذه الأعيان، وتلاشت هذه الأكوان، وغُيبتُ عن الاستواء الرحماني والاسم الرباني، أمكنني أن أُسر باللمحة، ولا أتضرّر بالمنحة، فقال: قد فُنيت الأقلام، وذهبت الأعلام، وراحت الأسماء، واحتجب الاستواء، ورفعت الألواح، وفقدت الألباب والأرواح، ولكن لا بد لك من ظلمة الجنة الدهماء، ودائرة الماء، والقلم الأعلى، والقدم الأولى، والنون المكنون، واليمين المصون، فعندما سمعت أنّ أثراً من الكون أمامي، خفت أن يقطعني عن إلمامي، فانتهضتُ من تلك الظلمة المدلهمة، وتركت بها بُراق الهمة، ورُفعت على أسرة اللطائف ومتكئات الرفارف إلى أن وصلنا مقام الابتهاج، أتمايل فيه تمايل السراج، فقلت: ما لي وحالة السماع؟ فقيل: حركك حسن الإيقاع، فقلت: ما أحسنت به! فقيل لي: انتبه! فإنّه بك لا أنت به، فقلت: الحقيقة في غنى عن إيقاع الغناء، ومطلبها الفناء في الفناء، فحجب عن عيني عينها، وحال بيني وبينها، ثم قال لي: أين أنت من العالم ومني؟.

قلت: بين التعني والتمني، مطلبي في العماء، وأنا في الماء، وروحي في السماء، وعرشي في الهباء، وأهلي في سباء، وملكي في الاستواء، وحكمي في قدمي السواء، وفَلَكي في الفُلك، وحجابي في المُلك، وتثليثي في الهيولى، ومحنتي في الأولى، وبدايتي في الحافرة وغايتي في الآخرة، وحلتي في زحل، ومناجاتي في المشتري الأكمل، وخلافتي الإنسانية في المريخ الأحمر، وقلبي في السيد الإبراهيم

الأكبر، وحُسني في زهرة الأحكام، وإمضائي في عطارد الأفهام، وخلافتي الإلهية في البدر الأرفع، وهيكلي في العنصر المربع.

قال: هذا حظك من كوني، فأين حظك من عيني؟.

فقلت: - يا أيها المشير! المناسبة تكون بالنقيض وبالنظير، والنظير الملازم يكون بالذاتي واللازم.

فقال المشير: أريد مناسبة النظير فقلت في رسمي رسمك، وفي نعتي نعتك، والإجمال أحسن من التفصيل، في هذا القبيل من أجل أبناء السبيل.

فقال: صدقت! فأين مناسبة النقيض، بحكم الحقيقة، لا بحكم التعريض؟.

قلت: في عدمي وجودك، وفي بخلي جودك، وفي كلامك خرسي، وفي قولك جرسي، وفي استحالتي قَدُمك، وفي بدايتي قِدمك.

قال: علمتُ أنك علمتَ، وبه ما حكمت.

ثم كَشَف لي عن شجرة البستان الكلية، الموصوفة بالمثلية، فنظرت إلى شجرة أصلها ثابت، وفرعها في السماء، وثمرها بين إله الاستواء، وبين أوراقها وأغصانها الغراب والغريبة العنقاء، وفي ذرى أفنانها العقاب والمطوقة الورقاء، فسلمت على الشجرة، فحُييتُ بأحسن من ذلك، وقالت: اسمع أيها السالك المالك خطبة الشجرة الكلية الموصوفة بالمثلية ثم قالت: أنا الشجرة المثلية، الجامعة الكلية، ذات الأصول الراسخة، والفروع الشامخة، غرستني يد الأحد، في بستان الأبد، مستورة عن تصاريف الأمد، فأنا ذات روح وجسد، وثمري مقطوف من دون يد، حملت من ثمر العلوم والمعارف، ما لا تستقل بحمله العقول السليمة وأسرار اللطائف، وَرَقي فرش مرفوعة، وفاكهتي غير مقطوعة ولا ممنوعة، ووسطي هو المقصود، وفروعي في هبوط وصعود، فالهابطة للتدلي والإفادة، والصاعدة للتدني والاستفادة، نشأتي كالفلك في الاستدارة، وفروعي منازل الأرواح الطيّارة، وزهري كالكواكب السيّارة، تتكوّن المعادن عن سريانها في أبدانها، أنا شجرة النور والكلام، وقرّة عين موسى عليه السلام، لي من الجهات اليمين الأنفس، ومن الأمكنة الوادي المقدس، ولي من الزمان الآن، ومن المساكن خط الاستواء واعتدال الأركان، فلي الدوام والبقاء، والسعادة دون الشقاء، جني جنتي دان، وفنني يُمسُّ كأنه نشوان، له لطافة وحنان، على جميع الحيوان، لم تزل أفناني للأرواح اللوحية كنادراً، وورقي لها عن تأثير الشعاعات اليوحيّة ساتراً، ظلي ممدود لأهل العناية، وجناحي منشور على أهل

الولاية، تهب عليّ الأرواح باختلاف تصاريفها، فتخرج أغصاني عن ترتيب تآليفها، فتسمع لذلك التداخل نغمات توله العقول العلوية، على سمو أوجها، وتجري بها على حسب ما رقم في درجها، فأنا موسيقار الحكمة، ومزيل الغموم بحسن إيقاع النغمة، فأنا النور الأزهر، ولي البساط الأخضر، والوجه المستدير الأنضر، أُيدتُ بالقوى، وشُرِّفتُ بالمستوى، وصرت كالهيولى، أقبل جميع الصور في الآخرة والأولى، لا أضيق عن حمل شيء، ولا أنفك عن نور وفيء، فنوري عليّ، وفيئي لمن استند إليّ، فأنا الظل الممدود، والطلح المنضود، والمعنى المقصود، وكلمة الوجود، وأشرف محدث موجود، وأنزه أرض عزيزة السلطان، مقدسة المكان، رفيعة المنار، ينبوع الأنوار، جوامع الكلم، معدن الأسرار والحكم، ونسخة الاسم الأعظم، ومَظهر السر المحكم.

[الوافر]

لـيَ الأرضُ الأريـضـةُ والـسـمـاءُ ... وفـي وسـطـي الـسـواءُ والاسـتـواءُ

لـي الـمـجـد الـمـؤثـل والـبـهـاء ... وسـر الـعـالـمـيـن والاعـتـلاءُ

إذا مـا أُمَّـت الأفـكـار ذاتـي ... يـحـيـرهـا عـلـى الـبـعـد الـعـمـاءُ

فما في الكون من يدري وجودي ... سـوى مـن لا يـقـيـده الـثـنـاءُ

لـه الـتـصـريـف والأحـكـام فـيـنـا ... هـو الـمـخـتـار يـفـعـل مـا يـشـاءُ

خطبة المطوقة الورقاء

ولما سَمِعت المطوقةُ كلام الشجرة الكلية، وما جاءت به من المعارف الإلهية، صدحت في روضة قدسها، معربة عن نفسها، قالت:

لما أراد الله إيجاد كوني، وإشهاد عيني، وأن يطوقني طوق البهاء، ويسكنني في سدرة المنتهى، نادى بعُقابه الآمن من عِقابه، وهو بفناء بابه، فأجابه مطيعاً، وقال: ناديتَ سميعاً فقال: إنّك في أرض غربة، وإن كنت مني في محل القربة، فإني لست من جنسك، فلا بد من استيحاش نفسك، وفيك قرّة عين، فأظهرها في العين، تأنس بمجاورتها، وتتنفّس بمحاورتها، فإنّ الأنس فيّ محال، وأنا شديد المحال، فقال العقاب: وكيف يظهر عني شيء ومقامي العجز؟ وما في قوتي سلطان ولا عز؟.

فقال له: الزم المناوحة، فسيظهر عينها عند المكافحة، وهذا هو الانتظام الثاني، والالتحام بالمثاني، فناوح الأمر، فظهرتُ، وناداني الحق، فبادرت، وما عرف

العقاب ما جرى به النهر، لشغله بالمهر، وكوني منه في الظهر، فعندما سمع إجابة النداء، قال: ما هذا الذي بدا؟ فسرف النظر إليّ فعشِقني، وهيَّمه ما به الحق من الجمال طوقني، فشكا العليل والأليل، ونادى بالحريق والغريق، وبَلبل بُلبل بلباله، وتعمَّل في إصلاح باله، ويأبى الخرق إلاّ اتساعاً، والعزاء إلاّ امتناعاً، وما أُبيح له لثمي، وشفاؤه في مضاجعتي ضمي، فرفع عنه حجاب الريب، ونودي من خلف سرادقات الغيب، ما لك تنظر في أعطافها، وتوقيع نغماتها؟ ولا تنظر في أوصافها، وبديع حكمتها؟ فدعاني إليه فلبيت، وأمرني بالقعود بين يديه فجثوت، فقال لي تهيامي في حسن مبانيك، أذهلني عن معرفة معانيك، وقد ورد الأمر أن تعرِّفيني بنفسك، وتُطلعي لي بارقة من سنا شمسك، فقلت: إنّ الله أوجدني منك عند التقابل، وأظهرني من ظهرك على التماثل، فأنا من قوتك صادرة، وبصورتك ظاهرة، وأودعني حقيقتين، ووهبني رقيقتين: حقيقة أُعرف بها، وحقيقة أكون ما شئته بسببها، ورقيقة مني إليك، تنزلني إذا اشتهيتك عليك، وبها حضرت بين يديك، ورقيقة مني إليه، تنزلني إذا دعاني عليه، فعندما سمع أنّ بيني وبينه رقيقة ممتدة، وهو قد تحقّق بحقائق المودة، نزل في تلك الرقيقة إليّ، حتى امتزجت ذاتي بذاته، وغابت صفاتي في صفاته، وغبنا في لذة الالتحام، وطبنا بحصول الانتظام، ووقع النكاح المعنوي، واجتمع الماءان، في الرحم الآن، وقَبِلَهُ الرَّحمُ بحكمة من حُرمَ ومن رُحِم، وبُلَّ العاشقُ من دائه، وارتاح شوقاً إلى ندائه، فهو يتردد بين شوقين، ويغرب في غربين، ويشرق في شرقين، فعندما أُستُبل من ألمه، ونزح إلى معلمه، وجدت في ذاتي امتلاءً لم أكن أعرفه قبل ذلك، وانسدت المجاري له والمسالك، فحركت الرقيقة الإلهية، فأجابني، وقلت: يا إلهي! ما هذا الذي أصابني؟ فقال: تنفسي بذكري، لتظهر عنك كلمة أمري، فتنفست تنفس المثقل، فإذا بالعنقاء قد عمّرت المعقل، فاسألوا العنقاء عن شأنها فستخبركم بما أودع الحق فيها من لطائفه، ومنحها من عوارفه فقال لسان حالها بصدر مقالها:

[مجزوء الرمل]

أنـــا ورقـــاء الـــمـــثـــانـــي مـــســـكـــنـــي روض الـــمـــعـــانـــي

أنـــا عـــيـــن فـــي الـــعـــيـــانِ لـــيـــس لـــي غـــيـــر الـــمـــثـــانـــي

فـــيـــنـــاديـــنـــي يـــا ثـــانـــي وأنـــا لـــســـت بـــثـــانـــي

يـــنـــتـــهـــي إلـــى وجـــودي كـــل شـــيء فـــي الـــكـــيـــانِ

أنا أتلو من تسامت ⁂ ذاته عن العيانِ

لي حُكمٌ مستفادٌ ⁂ في الأقاصي والأداني

ليس لي مَثَلٌ سوى مَنْ ⁂ شأنه يشبه شاني

فانتقد إن كنت تبغي ⁂ ما أتى به لساني

من رقائق تدلت ⁂ بحقائق حسانِ

لقلوب قد تولّت ⁂ عن زخارف الجنانِ

طالبات مَنْ تعالى ⁂ عن تصاريف الزمانِ

فهو الفرد المعلّى ⁂ ما له في الحكم ثاني

وهو الذي اجتباني ⁂ وهو الذي اصطفاني

وأقامني عليلاً ⁂ بين دِنٍ ودنانِ

فأقاصي كل قاصِي ⁂ وأداني كل داني

وأوالي كل والٍ ⁂ وأعاني كل عاني

فإذا هُوِّيت سفلاً ⁂ فبروح السريان

وذا صُعِّدت علواً ⁂ فبتحليل البيانِ

فأنا أعطي المعاني ⁂ وأنا أخلي المغاني

خطبة العقاب المالك

لما سمع العقاب ما ذكرته المطوقة، وما قررته من العلوم المحققة، قال: صدقتْ فيما ادعته وأظهرت لكم ما وَسِعته.

قلنا له: طر في جو بيانك، وأعرب لنا عن شانك، فاهتز سرير العقاب، وصفق بجناحيه وطاب، وقال:

[الكامل]

أنا العقابُ لي المقامُ الأرفعُ ⁂ والحسنُ والنورُ البهيُّ الأسطعُ

أمضي الأمور على مراتب حكمها ⁂ في العدوة الدنيا وعزي أمنعُ

أنا فيضه السامي ونور وجوده ⁂ وأنا الذي أدعو الوجود فيخضعُ

وأنا الذي ما زلت قبضةَ موجدي ⁂ فالجود جودي والحقائق توضعُ

نحوي لتطلب ما لها في شربها ⁂ مناف فأعطي من أشاء وأمنعُ

أدنـو فـيـبـهـرنـي جـمـال وجـوده أنـأى فـيـدعـونـي الـبـهـاء الأروعُ
فـإذا دنـوتُ فـحـكـمـةٌ مـقـبـولـةٌ لـكـنْ لـهـا قـلـب الـعـلـى يـتـصـدّعُ
وإذا بـعـدت فـأمـرة مـقـسـومـة والـنـور مـن أرجـائـهـا يـتـشـعـشـعُ
فـأنـا الأمـيـر إذا بـعـدت فـشـقـوتـي فـي إمـرتـي وسـعـادتـي إذ أنـزعُ
فـأسـرُّ أوقـاتـي وأسـعـدهـا إذا عـايـنـت أعـيـان الأهـلـة تـطـلـعُ

ثم قال: لم أزل في مرتبة من مراتب الكون، وأنا معدوم العين، إلى أن سبقت العناية، وكانت بوجودي البداية، وذلك أنّه تجلّى بنفسه لنفسه، فامتدّ وجودي بشهودي، وقبلتُ السورة بالصورة، وكنتُ سريرةً بالسريرة، فاستوى عليَّ الاسم الجامع، وحفّ بركائبه وزيراه: المعطي والمانع، وحاجباه، الضار والنافع، فلما تحقق الاستواء، وبان السواء، ودعتني الأسماء، بالأعز الأسمى، فعمر الفناء، وبرز البقاء والفناء، وتوالى القسط والفيض واستمر، وثبت البسط والقبض واستقر، وصح بالمَلَك المُلك، وظهر بالمالكة المُلك، ودار بالفَلك الفُلك وناداني نداء التعليم، بلسان التحكيم، أن انظر في ذاتك، بجامع لذاتك، فلما وقع مني النظر، وميّزت بين من يجب له التقدّم ممن يجب له النظر، وشرعت المذاهب، وقسمت الأنوار بين المكاسب والمواهب، وقلت لمن عاينت من الأرواح المهيمة: الزموا الحضرة المهيمة، وقلت لمن عاينتُ من الأرواح المسخَّرة: الزموا المقامات المسخرة، ثم قلت لمن عاينت من الأرواح المدبرة: الزموا الهياكل المدبرة، فراح كل صنف يطلب منزله، ليشاهد منزلَه، وكنت قد عاينت من الأرواح المدبر: الزموا الهياكل المدبّرة، فراح كل صنف يطلب منزله، ليشاهد منزلَه، وكنت قد عاينت المطوقة الورقاء، وحملها الغريبة العنقاء، غير أني لتقسيم النازل، ذهلت عن المنازل، فأنا علم الكون، والمخبوء في أردية الصَوْن، افترى عليّ جماعة من العقلاء، وتعصّب لأخذي عصابة من الفضلاء، فنصبوا شرك أفكارهم لصدي، وأحالوا عليّ ما مددتهم به ليستخرجوا حدي، ولما كانت الهمم قد توفرت لتحصيلي في شركهم الفكري، وحصل فيها عقاب على صورتي من الموطن الوهمي، قالوا: هذا هو الحق المبين، ولو عرفوا أنّ الحق ما بان لهم ولا يبين، فإنّ المعرفة بي وبموجدي موقوفة على الوهب، مصروفة عن الكسب، فاستفزِهم بشبهته الشيطان، وتخيّلوا أنهم قد حلُوا بالرُبى، وما نزلوا إلاّ بالغيطان، واشتبه عليهم القِدَمَ بالقَدم، فحكموا عليّ بالقِدم، وأنّ وجودي لا عن

عدم، فتركتهم بشبهتهم لحماً على وضم، وهكذا ينبغي في من اهتضم الأمر الإلهي الوهبي أن يهتضم، فأنا بريء مما نسبوا، وكافر بما نصبوا، فإنّ الله جلّ ثناؤه في القِدم، وأنا إذ ذاك محكوم عليّ بالعدم، ثم أوجدني عن عدم لسابقة القدم، فظهر عيني، وأنار بعلمه كوني، وناط بي الفقر والعجز، وأماط عني الأزر والعز، فأنا الذليل الذي لا يُعز، والقوي الذي لم يزل يعجز.

خطبة الغريبة العنقاء

فلما فرغ العقاب من كلامه وأتى على بيان مقامه، قامت العنقاء تعرب عن وجودها، وتغرب بعزة حدودها فقالت:

أنا عنقاء مغرب، ما زال مسكني بالمغرب، بالمقام الوسيط، على سِيْف البحر المحيط، اكتنفني العجز من الجهتين، وما ظهر قط لوجودي عين، وقالت:

[الرجز]

فأنا الذي لا عين لي موجود ... وأنا الذي لا حكم لي مفقودْ

عنقاء مغرب قد تُعورف ذكرها ... عرفاً وباب وجودها مسدودْ

ما سيّر الرحمٰن ذكري باطلاً ... لكن لمعنى سره المقصودْ

هو أنني وهّابة أسرارهم ... عرفانها فصراطنا ممدودْ

والسالكون على مراتب نورهم ... فأجلّهم من نوره التجريدْ

فبي تكون الحدود، وعليّ توقف الوجود، يُسمعُ بذكري ولا أُرى، وليس الحديث بي حديثاً يفترى، أنا الغريبة العنقاء، وأمي المطوقة، الورقاء، ووالدي العقاب المالك، وولدي الغراب الحالك، أنا عنصر النور والظلم، ومحل الأمانة والتهم، لا أقبل النور المطلق فإنه ضدي، ولا أعرف العلم فإني ما أعيد ولا أبدي، كل من أثنى عليّ بعيد الفهم، مقهور تحت سلطان الوهم، ما لي عزة فاحتمي، وهياكل الكون الأعلى والأسفل إليّ تنتمي، أنا الحقيقة والأجمعة، لما عندي من السعة، فألبسُ لكل حال لبوسها، أما نعيمها وأما بؤسها، لا أعجز عن حمل صورة، وليس لي في السور المعلومة سورة، لكني وُهبتُ أن أهب العلوم ولست بعالمة، وأمنح الأحكام ولست بحاكمة، لا يظهر شيء لم أكن فيه، ولا يحصره طالب مدرك ولا يستوفيه، فبهذا القدر عَظُمتُ في أعين المحققين ولي جولان في مجالس المطرقين. فهذا قد أبنت عن حالي، وأظهرت صدقي في محالي.

خطبة الغراب الحالك

فقام الغراب وقال:

أنا هيكل الأنوار، وحامل محال الأسرار، ومحل الكيف والكم، وسبب الفرح والغم، أنا الرئيس المرؤوس، ولي الحس المحسوس، بي ظهرت الرسوم، ومني قام عالم الجسوم، وأنا أصل الأشكال، وبمراتب صوري تُضرب الأمثال، فأنا المصباح والرياح، وأنا سلسلة على صفوان والجناح، أنا البحر الذي طَفِقَ موجه، وأنا فرد المعدود وزوجه، عُرْضي دار كرامته لأوليائه، وعمقي دار إهانته لأعدائه، وطولي مذ وجدت لم يزل، يقابل بذاته الأبد والأزل، فأنا بوطيقي الحكم، وموسيقي النغم، وجامع حقائق الكلم، إليّ المنتهى، وعليّ عوّل أُولوا النهى، وأنا أسنى ما منح اللهى، أنا الغاية وليست لي غاية، من أجلي أُخذ مَنْ أُخِذ، وبسببي نُبِذ مَنْ نُبِذ، أنا المطوية باليمين، وأنا قبضة الحق المبين، دعاني الحق إلى حضرته فأتيت، وناداني إلى معرفته فلبيت، أنا صورة الفلك، ومحل الملك، عليَّ صح الاستواء، وعني كُني بالمستوى، أنا اللاحق الذي لا أُلحق، كما أنّ العقاب السابق الذي لا يسبق، هو الأول وأنا الآخر، وله الباطن ولي الظاهر، قُسم الوجود بيني وبينه، وأنا أظهرت عزّة وكونه، توقف عليّ حكمه، وسرى منه علمي، وسرى فيَّ علمه، إذا دفعه واهبه، فإليّ لأفيده وإذا أفدته شكرني لأزيده، فقامت طائفة ممن تدعي العقل الرصين - على زعمها - وقضت عليَّ شبهتهم بحكمها، فناطوا بي قبيح الهجاء، وجعلوني في حلّة حُسن الثناء، فجار عليهم وبال ما كانوا يعملون، وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون، كأني بهم في عمقي يستصرخون، فيجابون: اخسأوا فيها ولا تكلّمون، إذا كان في عُرضي أهل الثناء الحسن في حقي فاكهين هم وأزواجهم في روضة يحبرون، وقد أثنى عليّ الشرع فما أُبالي، وبيّن مرتبتي السمع فما أُغالي، ثم قال:

[مجزوء الرمل]

فأنا السر المسوى	خلقه بلا بنان
رتب الأمور فيه	خالقي لما بناني
فأنا صخر ومني	تتفجّر المعاني
وأنا مع العوالي	مثل أفراس الرهان
وأنا الذي تواري	حشمة عن العيانِ
والذي أجبت ربي	طائعاً لما دعاني

فالذي يرى وجودي لتصاريف الزمانِ
كفؤاد أم موسى فارغاً من المعاني
فهو الخلي حقاً من حقائق البيانِ
فأنا أصل المعاني وأنا أُس الأغاني
وأنا سر إمام فاضل سامي المكانِ
علمه أكمل علمٍ شأنه أعظم شانِ
هام بي لما رآني في مقاصير الجنانِ
لا أسمّيه فإني خائف حد السنانِ
والذي يفهم رمزي هو (صخر بن سنانِ)
أكرم الوجود كفاً ثابتاً عند الطعانِ
فأنا والأم والجدة والجد المعاني
في وجودنا عن الحق معاً بلا زمانِ
مثلما لاح لعينٍ في الهوى برقُ يماني

فهذا يا صخر بن سنان، قد أوضحت لك مقامات أمهات الأكوان، وهي: الإنسان الكلي، والعقل الأول، والنفس الواحدة، والهيولى، والجسم الكلي، فابحث فيها بحث العقال الطالب نجاة نفسه، وحضرات قدسه.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، وهذا آخر ما رقمناه، وبالحق أنزلناه، من هذه الرسالة المسماة بـ(الاتحاد الكوني في حضرة الإشهاد العيني بمحضر الشجرة الإنسانية والطيور الأربعة الروحانية).

رسالة الأنوار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الشيخ الإمام العالم الكامل المحقق المتبحر محيي الدين شرف الإسلام لسان الحقائق علامة العالم قدوة الأكابر ومحل الأوامر أعجوبة الدهر وفريدة العصر أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن العربي الطائي الحاتمي ثم الأندلسي ختم الله له بالحسنى.

الحمد لواهب العقل ومبدعه، وناصب النقل ومشرعه، له المنة والطول وله القوة والحول لا إله إلا هو رب العرش العظيم، وصلى الله على من أقام به أعلام الهدى، وأنزله بالنور الذي أضل به من شاء وهدى وسلم على آله الطاهرين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. أجبت سؤالك أيها الولي الكريم والصفي الحميم في كيفية السلوك إلى رب العزة تعالى والوصول إلى حضرته والرجوع به من عنده إلى خلقه من غير مفارقة فإنه ما ثم في الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله فكل هو وبه ومنه وإليه ولو احتجب عن العالم طرفة عين لفني العالم دفعة واحدة فبقاؤه بحفظه ونظره إليه غير أنه من اشتد ظهوره في نوره بحيث أن تضعف الإدراكات عنه فيسمى ذلك الظهور حجاباً فأول ما أبينه لك وفقك الله كيفية السلوك إليه ثم كيفية الوصول والوقوف بين يديه والجلوس في بساط مشاهدته وما يقوله لك.

ثم كيفية الرجوع من عنده إلى حضرة أفعاله به وإليه والاستهلاك فيه وهو مقام دون الرجوع فاعلم أيها الأخ الكريم أن الطرق شتى وطرق الحق مفردة والسالكون طريق الحق أفراد.

ومع أن طريق الحق واحدة فإنه يختلف وجوهه باختلاف أحوال سالكيه من اعتدال المزاج وانحرافه وملازمة الباعث ومعيته وقوة روحانيته وضعفها واستقامة همتها وميلها وصحة توجهه وسقمه فمنهم من تجتمع له ومنهم من تكون له بعض هذه الأوصاف فقد يكون مطلب الروحانية شريفاً ولا يساعده المزاج وكذلك ما بقي فأول ما يتعين علينا أن نبين لك معرفة المواطن كم هي وما يقتضي ما أريد منها هنا والموطن عبارة عن محل أوقات الأوراد

التي تكون فيه.

وينبغي لك أن تعرف ما يريده الحق منك في ذلك الموطن فتبادر إليه من غير تثبط ولا كلفة، والمواطن وإن كثرت فإنها ترجع إلى ستة.

الأول: موطن ألست بربكم وقد انفصلنا عنه.

والثاني: موطن الدنيا التي نحن فيها.

والثالث: موطن البرزخ الذي يصير إليه بعد الموت الأصغر والأكبر.

والرابع: موطن الحشر بأرض الساهرة والرد في الحافرة.

والخامس: موطن الجنة والنار.

والسادس موطن الكثيب خارج الجنة.

وفي كل موطن من هذه المواطن مواضع هي مواطن في المواطن ليس في القوة البشرية الوفاء بها لكثرتها ولسنا نحتاج في هذا الموضوع منها إلا إلى موطن الدنيا الذي هو محل التكليف والابتلاء والأعمال فاعلم أن الناس مذ خلقهم الله تعالى والمكلفين وأخرجهم من العدم إلى الوجود لم يزالوا مسافرين وليس لهم حط عن رحالهم إلا في الجنة والنار وكل جنة ونار بحسب أهلها.

فالواجب على كل عاقل أن يعلم أن السفر مبني على المشقة وشظف العيش والمحن والبلايات وركوب الأخطار والأهوال العظام فمن المحال أن يصح فيه نعيم أو أمان أو لذة فإن المياه مختلفة الطعم والأهوية مختلفة التصريف وأهل كل منهلة يخالف طبع أهل المنهلة الأخرى فيحتاج المسافر لما يصلح بتلقي كل عالم في منزله فإنه عندهم صاحب ليلة أو ساعة وينصرف فأنى تعقل الراحة فيمن هذه حالته.

وما أوردنا هذا رداً على أهل النعيم في العاملين لها والمكبين على جمع حطامها فإن أهل هذا الفعل عندنا أقل وأحقر من أن نشتغل بهم أو نلتفت إليهم وإنما أوردنا لذة لمن استعجل لذة المشاهدة في غير مواطنها الثابت وحالة الفنا في غير منزلها والاستهلاك في الحق بطريق المحق عن العالمين فإن السادة منا أنفوا من ذلك لما فيه من تضييع الوقت ونقص المرتبة ومعاملة المواطن بما لا يليق فإن الدنيا سجنه وتعلق الهمة والذكر في استجلابه تجليه وهو سوء أدب في حقه وفاته أمر كبير منه فإن زمان الفناء في الحق زمان ترك مقام أعلى مما هو فيه لأن التجلي على قدر العلم وصورته فما حصل لك من العلم به منه في

مجاهدتك وتهيئتك في الزمان الأول مثلاً ثم أشهدت في الزمان الثاني فإنما تشهد منه صورة علمك المقررة في الزمان الأول فما زدت سوى انتقالك من علم إلى عين والصورة واحدة فقد حصلت ما كان ينبغي لك أن تؤخره لموطنه وهو الدار الآخرة التي لا عمل فيها وإن زمان مشاهدتك لو كانت فيه صاحب عمل ظاهر وتلقى علم بالله باطن كان أولى بك لأنك تزيد حسناً وجمالاً في روحانيتك الطالبة ربها وفي نفسانتك الطالبة حصتها فإن اللطيفة الإنسانية تحشر على صورة علمها والأجسام تنشر على صور أعمالها من الحسن والقبيح وهكذا إلى آخر نفس فإذا انفصلت من عالم التكليف وموطن المعارج والارتقاءات حينئذٍ تجني ثمرة غرسك.

فإذا فهمت هذا فاعلم وفقنا الله وإياك إذا أردت الدخول إلى حضرة الحق والأخذ منه بترك الوسائط والأنس به أنه لا يصح لك ذلك وفي قلبك ربانية لغيره فإنك لمن حكم عليك سلطانه هذا لا شك فيه فلا بد لك من العزلة عن الناس وإيثار الخلوة عن الملأ فإنه على قدر بعدك من الخلق يكون قربك من الحق ظاهراً وباطناً.

فأول ما يجب عليك طلب العلم الذي به تقيم طهارتك وصلاتك وصيامك وتقواك وما يفرض عليك طلبه خاصة لا تزيد على ذلك وهو أول باب السلوك ثم العمل به ثم الورع ثم الزهد ثم التوكل وفي حال من أحوال التوكل يحصل لك أربع كرامات هي علامة وأدلة على حصولك في أول درجة التوكل وهي طي الأرض والمشي على الماء واختراق الهواء، والأكل من الكون وهو الحقيقة في هذا الباب ثم بعد ذلك تتولى المقامات والأحوال والكرامات والتنزلات إلى الموت فالله الله لا تدخل خلوتك حتى تعرف أين مقامك وقوتك من سلطان الوهم.

فإن كان وهمك حاكماً عليك فلا سبيل إلى الخلوة إلا على يدي شيخ مميز عارف وإن كان وهمك تحت سلطانك فخذ الخلوة ولا تبالي وعليك بالرياضة قبل الخلوة والرياضة عبارة عن تهذيب الأخلاق وترك الرعونة وتحمل الأذى فإن الإنسان إذا تقدم فتحه قبل رياضته فلن يجيء منه رجل أبداً إلا في حكم النادر فإذا اعتزلت عن الخلق فاحذرهم عن قصدهم إليك وإقبالهم عليك فإنه من اعتزل عن الناس لم يفتح بابه لقصد الناس إليه فإن المراد من العزلة ترك الناس ومعاشرتهم وليس المراد من ترك الناس ترك صورهم وإنما المراد أن لا يكون قلبك ولا إذنك معهم وعاء لما يأتون به من فضول الكلام فلا يصفو القلب من هذيان العالم فكل من اعتزل في بيته وفتح باب قصد الناس إليه فإنه طالب رياسة وجاه مطرود عن باب الله تعالى، والهلاك إلى مثل هذا أقرب من شراك نعله فالله الله تحفظ في تلبيس النفس في هذا المقام.

فإن أكثر الخلق هلكوا فيه فأغلق بابك دون الناس وكذلك باب بيتك بينك وبين أهلك واشتغل بذكر الله بأي نوع شئته من الأذكار وأعلاها الاسم هو قولك: الله الله الله لا تزيد عليه شيئاً وتحفظ من طوارق الخيالات الفاسدة أن تشغلك عن الذكر وتحفظ في غذائك واجتهد أن يكون دسماً ولكن من غير حيوان فإنه أحسن واحذر من الشبع ومن الجوع المفرط والزم طريق اعتدال المزاج إذا أفرط فيه اليبس أدى إلى خيالات وهذيان طويل فإذا كان الوارد هو الذي يعطي الانحراف فذلك هو المطلوب.

وتفرق بين الواردات الروحانية الملكية والواردات الروحانية النارية الشيطانية مما تجده في نفسك عند انقضاء الوارد وذلك أن الوارد إذا كان ملكياً فإنه يعقبه برد ولذة لا تجد ألماً ولا تتغير لك صورة ويترك علماً وإذا كان شيطاناً فإنه يعقبه تهريس في الأعضاء وألم وكرب وحيرة ويترك تخبيطاً فتحفظ ولا تزال ذاكراً حتى يفرغ الله عن قلبك وهو المطلوب واحذر أن تقول ماذا فليكن عقدك عند دخولك إلى خلوتك إن شاء الله ليس كمثله شيء فكل ما يتجلى لك من الصور وفي خلوتك ويقول لك: أنا الله فقل: سبحان الله أنت بالله واحفظ صورة ما رأيت واله عنها واشتغل بالذكر دائماً، هذا عقد واحد. والعقد الثاني أن لا تطلب منه في خلوتك سواه ولا تعلق الهمة عنده وصمم على طلبك فإنه يبتليك ومهما وقفت مع ذلك فاتك وإذا حصلته لم يفتك شيء.

فإذا قد عرفت هذا فاعلم أن الله مبتليك بما يعرضه عليك فأول ما يفتح عليك أن أعطاك الأمر على الترتيب ما أقول لك وهو كشفك عالم الحس الغائب عنه فلا يحجبك الجدرات ولا الظلمات عما يفعله الخلق في بيوتهم إلا أنه يجب عليك التحفظ أن تكشف سر أحد عند أحد إذا أطلعك الله عليه فإن بحت به وقلت: هذا زانٍ وهذا شارب وهذا يغتاب فاتهم نفسك فإن الشيطان قد دخل عليك فتحقق بالاسم وأوصه أن يستحي من الله ولا يتعدى حدود الله واله عن هذا الكشف جهد طاقتك واشتغل بالذكر.

وأما التفرقة بين الكشف الحسي والخيالي فنبينه وذلك إذا رأيت صورة شخص أو فعلاً من أفعال الخلق أن تغلق عينك فإن بقي لك الكشف فهو في خيالك وإن غاب عنك فإن الإدراك يعلق به في الموضع الذي رأيته فيه ثم إذا لهيت عنه واشتغلت بالذكر انتقلت من الكشف الحسي إلى الكشف الخيالي فتتنزل عليك المعاني العقلية في الصورة الحسية وهو تنزل صعب.

فإن علم ما أريد بتلك الصورة لا يعرفها إلا نبي أو من شاء الله من الصديقين فلا تشتغل به وإن سبقت لك مشروبات فاشرب الماء منها وإن لم يكن فيها ماء فاشرب اللبن

وإن جمعت بينهما فحسن وكذلك العسل وتحفظ من شرب الخمر إلا أن يكون ممزوجاً بماء المطر فإن كان بماء الأنهار والعيون فلا سبيل إلى شربه واشتغل بالذكر حتى يفرغ عنك عالم الخيال وتجلى لك عالم المعاني المجرد عن المادة.

واشتغل بالذكر حتى يتجلى لك مذكورك فإذا أفناك عن الذكر به فتلك المشاهدة أو النومة وسبيل التفرقة بينهما أن المشاهدة تترك في المحل شاهدها فتقع اللذة عقيبها والنومة لا تترك شيئاً فيقع التيقظ عقيبها والاستغفار والندم ثم إن الله تعالى يعرض عليك مراتب المملكة ابتلاء فإن رتب لك العرض فإنك ستكشف أولاً على أسرار الأحجار المعدنية وغيرها وتعرف سر كل حجر وخاصيته في المضار والمنافع فإن تعشقت به أبقيت معه وطردت ثم سلب عنك حفظك فخسرت وإن استغنيت عنه واشتغلت بالذكر ولجأت إلى جناب المذكور رفع عنك ذلك النمط وكشف لك عن النباتات ونادتك كل عشية بما تحمله من خواص المضار والمنافع فليكن حكمك أولاً وليكن غذاؤك عند الكشف الأول ما كثرت مرارته ورطوبته، وفي هذا الكشف الآخر النباتي ما اعتدلت حرارته ورطوبته فإذا لم تقف معه رفع لك عن الحيوانات فسلمت عليك وعرفتك بما تحمله من خواص المضار والمنافع وكل عالم يعرفك بتسبيحه وتمجيده.

وهنا نكتة، وذلك أن تنظر ما أنت مشتغل به من الأذكار فإن رأيت هؤلاء العوالم مشتغلين بذلك الذكر الذي أنت عليه فكشفك خالي لا حقيقي وإنما ذلك حالك أقيم لك في الموجودات وإذا شهدت في هؤلاء تنوعات أذكارهم فهو الكشف الصحيح وهذا المعراج التحليل على الترتيب والقبض لك مصاحب في هؤلاء العوالم.

ثم بعد هذا يكشف لك عن عالم سريان الحياة السببية في الأحياء وما تعطي من الأثر في كل ذات بحسب استعداد الذوات وكيف تندرج العادات في هذا السريان.

فإن لم تقف مع هذا رفع عنك ورفعت لك اللوائح اللوحية وخوطبت بالمخاويف وتنوعت عليك الحالات وأقيم لك دولاب تعاين فيه صور الاستحالات وكيف يصير الكثيف لطيفاً واللطيف كثيفاً وما أشبه ذلك.

فإن لم تقف مع هذا رفع لك نور الشرر فستطلب الستر عنه فلا تخف ودم على الذكر فإنك إذا دمت على الذكر لم تصبك آفة.

فإن لم تقف معه رفع لك نور الطوالع وصورة التركيب الكلي وعاينت آداب الدخول إلى الحضرة الإلٰهية وآداب الوقوف بين يدي الحق وآداب الخروج من عنده إلى الخلق والمشاهدة الدائمة بالوجوه المختلفة من الظاهر والباطن والكمال الذي لا يشعر به كل أحد

فإن كل ما نقص وكيفية تلقي العلوم الإلٰهية من الله تعالى وما ينبغي أن يكون عليه المتلقي من الاستعدادات وأدب الأخذ والعطاء والقبض والبسط وكيف يحفظ القلب من الهلاك المحرق وأن الطرق كلها مستديرة ما ثم طريق خطى وغير ذلك مما تضيق هذه الرسالة عنه.

فإن لم تقف مع هذا كله رفع لك عن مراتب العلوم النظرية والأفكار السليمة وصور المغاليط التي تطرأ على الأفهام والفرق بين الوهم والعلم وتولد التكوينات بين عالم الأرواح والأجسام وسبب ذلك التولد وسريان السر الإلٰهي في عالم العناية وسبب من ترك الكون عن مجاهدة وعن لا مجاهدة وغير ذلك مما يطول.

فإن لم تقف مع هذا رفع لك عالم التصوير والتحسين والجمال وما ينبغي أن تكون عليه العقول من الصور المقدسة والنفوس النباتية من حسن الشكل وسريان الفتور واللين والرحمة في الموصوفين بها ومن هذه الحضرة يكون الإمداد للشعراء ومن الذي قبله يكون الإمداد للخطباء.

فإن لم تقف مع هذا رفع لك معه عن مراتب القطبية وكل ما شاهدته قبل فهو من عالم اليسار وهذا الموضع هو القلب فإذا تجلى لك هذا العالم الانعكاسات ودوام الدائمات وخلود الخوالد وترتيب الموجودات وسريان الوجود فيها وأعطيت الحكم الإلٰهية والقدرة على حفظها والأمانة على تبليغها إلى أهلها وأعطيت الرموز والإجمال فالوهب على الستر والكشف.

فإن لم تقف مع هذا رفع لك عن عالم الحمية والغضب والتعصب ومنشأ الخلاف الظاهر في العالم واختلاف الصور وغير ذلك.

فإن لم تقف مع هذا رفع لك عن عالم الغيرة وكشف الحق على أتم وجوهه والآراء السليمة والمذاهب المستقيمة والشرائع المنزلة وترى عالماً قد زينهم الله من المعارف القدسية بأحسن زينة.

وما من مقام يكشف لك عنه إلا وهو يقابلك بالتعزيز والتوقير والتعظيم ويعرب لك عن مقامه ومرتبته من الحضرة الإلٰهية ويعشقك بذاته، فإن لم تقف معه رفع لك عن عالم الوقار والسكنية والثبات والمكر وغامضات الأسرار وما شاكل هذا الفن.

فإن لم تقف مع هذا رفع لك عن عالم الحيرة والقصور والعجز وخزائن الأعمال وهم عليون، فإن لم تقف معه رفع لك الجنان ومراتب درجاته وتداخل بعضه في بعض وتفاضل نعيمه وأنت واقف على طريق ضيقة ثم أشرف بك على جهنم ومراتب دركاتها وقد أخل بعضها في بعضها وتفاضل أعمالهما ورفع لك عن الأعمال الموصلة إلى كل واحدة من

الدارين.

فإن لم تقف مع هذا رفع لك عن أرواح مستهلكة في مشهد من مشاهده هم فيه حيارى سكارى قد غلبهم سلطان الوجد فدعاك حالهم.

فإن لم تقف لدعوته رفع لك نور لا ترى فيه غيرك فيأخذك فيه وجد عظيم وهيمان شديد وتجد فيه من اللذة بالله ما لم تكن تعرفها قبل ذلك ويصغر في عينك كل ما رأيته وأنت تتمايل فيه تمايل السراج، فإن لم تقف معه رفع لك عن صور على صور بني آدم وستور ترفع وستور تسدل ولهم تسبيح مخصوص تعرفه إذا سدلته ولا تدهش فسترى صورتك بينهم ومنها تعرف وقتك الذي أنت فيه فإن لم تقف رفع لك سرير الرحمانية وكل شيء عليه فإذا نظرت في كل شيء فسترى جميع ما اطلعت عليه فيه وزائداً على ذلك ولا يبقى علم ولا عين إلا وتشاهده فيه فاطلب علتك في كل شيء فإذا وقفت علتك فيه عرفت أين غايتك ومنزلتك ومنتهى رتبتك وأي اسم هو ربك وأين حظك من المعرفة والولاية وصورة خصوصيتك.

فإن لم تقف معه رفع لك عن أستار كل شيء ومعلمه فعاينت أثره وعرفت خبره وشاهدت انتكاسه وتلقيه وتفصيل مجمله من الملك النوني.

فإن لم تقف معه رفع لك عن المحرك فإن لم تقف محيت ثم غيبت ثم أفنيت ثم سحقت ثم محقت حتى إذا انتهت فيك آثار الماحي وإخوانه أثبت ثم أحضرت ثم جمعت ثم غيبت فخلعت عليك الخلع التي تقبضها فإنها تتنوع ثم ترد على مدرجتك فتعاين كل ما عاينته مختلف الصور حتى ترد إلى عالم حسك المقيد الأرضي أو تمسك حيث غيبت.

وغاية كل سالك مناسبة لطريقه الذي عليك سلك فمنهم من يناجي بلغته ومنهم من يناجي بغير لغته وكل من نوجي بلغة أية لغة كانت فإنه وارث لبني ذلك اللسان وهو الذي تسمعه على السنة أهل هذه الطريقة أن فلاناً موسوي وعيسوي وإبراهيمي وإدريسي ومنهم المناجي بلغتين وثلاثة وأربعة فصاعداً.

والكامل من يناجي بجميع اللغات وهو المحمدي خاصة فما دام في غايته فهو الواقف ما لم يرجع فإن منهم المستهلك في ذلك المقام كأبي عقال وغيره وفيه يقبض ويحشر.

ومنهم المردود وهو أكمل المواقف المستهلك بشرط أن يتماثلا في المقام فإن كان المستهلك في مقام أعلى من مقام المردود فلا نقول أن المردود أعلى ولكن شرطنا التماثل إذ يعيش المردود النازل عن مقام المستهلك حتى يبلغ مرتبة المستهلك ويزيد عليه في التداني

ويزيد عليه في التدلي ويفضل عليه في الترقي فيفضل عليه في التلقي وأما المردودون فهم رجلان منهم من يرد في حق نفسه وهو النازل الذي ذكرناه وهذا هو العارف عندنا فهو راجع لتكميل نفسه من غير الطريق الذي سلك عليه ومقيم.

ومنهم من يرد إلى الخلق بلسان الإرشاد والهداية وهو العالم الوارث وليس كل داعٍ وارث على مقام واحد لكن يجمعهم مقام الدعوة ويفضل بعضهم عن بعض فمنهم الداعي بلغة موسى وعيسى وسام وإسحاق وإسماعيل وآدم وإدريس وإبراهيم ويوسف وهارون وغيرهم وهؤلاء هم الصوفية وهم أصحاب أحوال بالإضافة إلى السادة منا.

ومنهم الداعي بلغة محمد ﷺ وهم الملامتية أهل التمكين والحقائق وإذا دعوا الخلق إلى الله تعالى فمنهم من يدعو من باب الفناء في حقيقة العبودية وهو قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩] ومنهم من يدعوهم من باب ملاحظة العبودية وهو الذلة والافتقار وما يقتضيه مقام العبودية.

ومنهم من يدعوهم من باب ملاحظة الأخلاق الرحمانية ومنهم من يدعوهم من باب ملاحظة الأخلاق القهرية. ومنهم من يدعوهم من باب الأخلاق الإلهية وهو أرفع باب وأجله.

واعلم أن النبوة والولاية تشتركان في ثلاثة أشياء. الواحد في العلم من غير تعلم كسبي. والثاني في الفعل بالهمة فيما جرت العادة أن لا يفعل إلا بالجسم أو لا قدرة للجسم عليه. والثالث: في رؤية عالم الخيال في الحس ويفترقان بمجرد الخطاب فإن مخاطبة الولي غير مخاطبة النبي ولا يتوهم أن معارج الأولياء على معارج الأنبياء ليس الأمر كذلك لأن المعارج تقتضي أموراً لو اشتركا فيها بحكم العروج عليها لكان الولي ما للنبي وليس الأمر على هذا عندنا وإن اجتمعا في الأصول وهي المقامات لكن معارج الأنبياء بالنور الأصلي ومعارج الأولياء بما يفيض من النور الأصلي وإن جمعهما مقام التوكل فليست الوجوه متحدة والفضل ليس في المقام وإنما هو في الوجوه والوجوه راجعة للمتوكل وهكذا في كل حال ومقام من فناء وبقاء وجمع وفرق واصطلام وانزعاج وغير ذلك.

واعلم أن كل ولي لله تعالى فإنه يأخذ ما يأخذ بوساطة روحانية نبيه الذي هو على شريعته ومن ذلك المقام يشهد.

ومنهم من يعرف ذلك ومنهم من لا يعرفه يقول: قال لي الله وليس غير تلك الروحانية.

وهنا أسرار لطيفة تضيق هذه الأرواق عنها لما أردناه من التقريب والاختصار. غير أن الأولياء من أمة محمد ﷺ الجامع لمقامات الأنبياء عليهم السلام قد يرث الواحد منهم موسى عليه السلام ولكن من النور المحمدي لا من النور الموسوي فيكون حاله من محمد عليه السلام حال موسى عليه السلام منه ﷺ وربما يظهر من ولي عند موته ملاحظة موسى أو عيسى فيتخيل العامي ومن لا معرفة له أنه قد تهود أن تنصر لكونه يذكر هؤلاء الأنبياء عند موته وإنما ذلك من قوة المعرفة بمقامه والاتصاف إلا القطب فإنه على قلب محمد عليه السلام وقد لقينا رجالاً على قلب موسى وآخرين على قلب إبراهيم وغيرهم عليهم السلام ولا يعرف ما نذكره إلا إصحابنا.

واعلم أن محمداً عليه الصلاة والسلام هو الذي أعطى جميع الأنبياء والرسل مقاماتهم في جميع الأرواح حتى بعث بجسمه ﷺ وتبعناه والتحق بنا من الأنبياء في الحكم من شاهده أو نزل بعده فأولياء الأنبياء الدين سلفوا يأخذون عن أنبيائهم وأنبياؤهم يأخذون عن محمد ﷺ فشاركت الولاية المحمدية الأنبياء في الأخذ عنه ولهذا ورد الخبر علماء هذه الأمة أنبياء بني إسرائيل وقال تعالى فينا: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] وقال في حق الرسل: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٨٩] على أتباعهم ونصرف الهمة في الخلوة للوراثة الكلية المحمدية.

واعلم أن الحكيم الكامل المحقق المتمكن هو الذي يعامل كل حال ووقت بما يليق به ولا يخلط وهذه هي حالة محمد ﷺ فإنه كان من ربه بقاب قوسين أو أدنى ولما أصبح وذكر ذلك للحاضرين ولم يصدقه المشركون لكون الأثر ما ظهر عليه ووافقوه في ذلك بخلاف غيره حين ظهر عليه الأثر فكان يتبرقع.

ولا بد لكل سالك من تأثير الأحوال فيه وخلطه العوالم بعضها ببعض ولكن ينبغي له الترقي من هذا المقام إلى مقام الحكمة الإلٰهية الجارية على القانون المعتاد في الظاهر وينصرف خرق العوائد إلى سره حتى يرجع له خرق العوائد له عادة لاستصحابه ولا يزال يقول في كل نفس ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] ما دام الفلك يجري بنفسه وليجتهد أن يكون وقته نفسه وإذا ورد عليه أراد الوقت يقبله وليحذر من التعشق به ويحفظه فإنه يحتاج إليه إذا رما.

وأكثر الشيوخ إنما أتى عليهم في التربية لما فرطوا في حفظ ما ذكرناه وزهدوا فيه زهداً كلياً ويطول الوقت ويقصر بحسب حضور صاحبه فمنهم من وقته ساعة ويوم وجمعة وشهر وسنة مرة واحدة من عمره.

ومن الناس من لا وقت له وعلو الشخص يدل على ضيق وقته والذي لا وقت له إنما حرم بحكم بهيميته عليه فإن باب الملكوت والمعارف من المحال أن ينفتح وفي القلب شهوة هذه للملكوت وأما باب العلم بالله من حيث المشاهد فلا يفتح وفي القلب لمحة للعالم بأسره الملك والملكوت.

واعلم أن هذه الأمور الوضعية إذا سلك عليها الإنسان أقام بها ولم تكن له همة متعلقة بأمر وراءها إلا الجنة خاصة فذلك هو العالم صاحب الماء والمحراب كما أن الهمة لو تعلقت بما وراء العبادات من غير الاستعداد بها لم ينكشف له شيء ولا نفعت همته بل صاحبها أشبه بمريض سقطت قواه بالكلية وعنده الإرادة والهمة المحركة والآلة معطلة فهل يصل بهمته أي مطلوبه فلا بد من الاستعداد على الكمال بالهمة وغيرها فإذا وصل إلى عين الحقيقة امتحقت همته وليس بحصول البغية رفع الحجاب فإن العلم الذي يحصل له عند المشاهدة يلقى عنده التوجه إلى ما هو فوق ما ظهر في حقه لا فيما ظهر فإن الظاهر وإن كان واحد العين فإن الوجوه فيه غير متناهية وهي آثاره فينا فلا يزال العالم متعطشاً دائماً أبداً والواهب متعلق به دائماً أبداً فلمثل هذا العمل فليعمل العاملون وفي مثل هذا فليتنافس المتنافسون والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

كتاب الشاهد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلى الله على النبي وآله وسلم

هذا كتاب يتضمن ما يأتي به شواهد الحق في القلب من العلوم الإلهية والوصايا الربانية بلسان الحكمة وفصل الخطاب، وهذه الشواهد هي التي تبقى في قلب العبد بعد الانفصال من مقام المشاهدة وبه تقع اللذة للعارفين فيتردد الخطاب فيهم من وجودهم لوجودهم.

فمن ذلك

باب شاهد الإشتراك في التقدير

قال: الشاهد الاشتراك بين الخلق والحق في جميع الأشياء إلا في الاتحاد. وقال: مشاهدة الأفعال لا تعلم بدليل أبداً ولا تعاين، وهو المشهد الرابع الذي لا يشهده من الحق غير الحق. وقال تشاهد ذات الحق كما أخبر قمراً وشمساً، وتشاهد صفاته ويشهد صدور الكون منه بكن. ولا يشاهد فعله ولا يحاط بذاته، وقال بالأدوار في الأكوار تظهر الأطوار وتقصر الأوطار ويتصرف في الأفطار ويكور الليل والنهار. وقال للخلق التقدير وليس لهم امضاؤه. وقال إعرف قبل أن تموت من أين جئت وكيف جئت وما قيل لك وما قلت وما أخذ عليك وما أعطيك فإنه لا بد لك من الرجوع إلى الحق على الطريق الذي عليه خرجت من عنده، انظر في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: ٥٤] هذا حال وقت نظرك إن نظرت، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة فنكصت على عقبيك فانظر كيف تكون.

باب شاهد السجدتين

أنت كل من حيث حقك وحقيقتك، وأنت جزء من حيث أحدهما فانظر في أية مرتبة تتميز، فله عليك سجدتان لكونك على حقيقتين فاسجد له من حيث كليتك سجود العالم كله فتجدك قد استوفيت حقائق سجودهم في سجدتك، وإن لم تجد ذلك فما سجدت وإذا

أردت أن تعرف ذلك فأصغ في سجودك إلى ندائه فإنه يناديك في السجدة الكلية بلغة كل ساجد وتعرف أنت ذلك إذا سمعته منه، واسجد له أيضاً السجدة الثانية التي لا تعم من سجود الاختصاص فلا يناديك في هذه السجدة إلا بما تختص به خاصيتك التي لا مشاركة فيها، ولا تقبل السجود الخاص إلا في الصلاة وهو سجود القلب، وسجود كل قلب على حد علمه وعلمه على حد ما يتجلى له. قال هاتين السجدتين خلع الثياب وتحجير الأسباب وذبح النفس ورمي الكون وإلا فكيف يصح سجود الاختصاص بوجود الكثرة فاعلم ذلك، والسلام.

باب شاهد

إياك أعني فاسمعي يا جارة. قال قال الشاهد إذا حضرت منزلاً فيه الرقباء فخاطب الرقيب وسمع المحبوب تسلم من غوائل الرقباء. وقال اعشق كل ما اشتهيته من الكون فإنه لا يغار ولا تعشق نفسك فإنه يغار، لأنك تقابل المعشوق بذاتك وهو يريدك له. وقال ما عشقتك لمثلك إلا لدعواك في محبتي. وقال لا راحة مع الخلق، فارجع إلى الحق فهو أولى بك، إن عاشرتهم على ما هم عليه بعدت منه فإنهم على ما لا يرضاه وإن لم تعاشرهم وقعوا فيك فلا راحة. وقال تحفظ من الصاحب فهو العدو الملازم فدله على الحق وإن ثقل عليه فسيشكر لك عند الله. وقال ما مد الظلال للراحة وإنما مدها لتكون لك سلماً إلى معرفته فأنت ذلك الظل وسيقبضك إليه، وقال أهل لا إله إلا الله سعدوا سعادة الأبد ولو شقوا يوماً ما. وقال لا شقاء مع التوحيد ولا سعادة مع الشرك المعتقد وشرك الغفلة معفو عنه.

باب شاهد الأنوار والظلمات

قال الشاهد كل منزلة فهي من عند الله ومرجعها إليه فمن نزل فيها رجع معها. وقال من التفت إلى الدنيا التفاتة عاشق لها ثم أخذت من دينه شيئاً حجبه عن مائة درجة في الجنة وبوأه مائة درك من النار، ثم إن من تاب تيب عليه. وقال احذر أن تلحق الأسرار المخزونة في خزائن الغيرة بالأسرار المبتذلة من عباد الله فتكون من الفاسقين، وقال عبدك ليس هو عبدك وإنما هو قيمته فعامله معاملة مالك فأنزله مرتبته من حيث إنه إنسان وقال النور واحد فيه اضاء العلو والسفل فيما يفتخر العلو على السفل. وقال النور نوران نور معتدل ونور منحرف فالمعتدل نور الحق والمنحرف نور الكون، وكذلك الظلمات. وقال نور السراج أدل على الحق من نور الشمس عند الناظرين بمشاهدتهم المادة التي بها بقاؤه. وقال جمع التكليف شمل الكون فلا تقل هذا حجر وهذا شجر فلا أبالي، غاية العين أن يعرفك الحجر

باب شاهد التوبيخ

قال الشاهد قريب التجلي فمالك مول. وقال: أعط جسدك حقه من عبادته كما اعطيت قلبك حظه من معرفته. وقال لا يليق بحضرة الحق الرقص والرفق وإن كان هو الخالق لها ولكن لها مواطن وقال مشاهدة الحق موقوفة على الهيبة والهيبة تسكن ولا تحرك. وقال كما يكون مع الحركة البركة الكونية فكذلك مع السكون البركة الإلهية، السكون ثبوت عند الحق والحركة خروج فقل لأصحاب السماع ارقصو واعلموا أنكم راقصون واعلموا أنكم مع نفوسكم باقون. وقال كل من تحرك، وقال أشهدني الحق وشاهدته فهو كاذب. وقال تعلم الخصام فإن الحق سيجعلك بين المشتركين فلا تتخلص منهم إلا بالحجة. وقال انظر من عبد غير الحق فقل له مالك وكذا اطلب منه كذا، ولا يكون هذا القول إلا غيرة منك في حق الحق فإن الذي يطلبه منهم لا يكون فتبقى حجتهم داحضة، وإن قلت ذلك لا من أجل الغيرة يكون ما طلبت منهم فيزداد الكافر كفراً وقد ترتاب أنت أو غايتك السلامة فلا تتعرض للفتن إلا بقدم راسخة عند الحق فمن لا قدم له عند الحق لا صدق له ومن لا صدق له سقط حظه من الحق والصدق مسؤول عنه فكيف غير الصدق.

باب شاهد الغيرة

(١قال الشاهدها فاستخرج الحق منحكه١) وقال لا يخاطبك الحق إلا بما عنده فاعمل بعمله وتفرغ بفراغه تكن حكيماً. وقال إذا قيل لك استرح فالخطاب من فوق العرش فخذ عن الخالق وعن الترجمان، وإذا قيل لك بلغ ولا تعمل فالخطاب من العرش لا من فوقه ولا من تحته. وقال متى ذكرت الحق وجدته ومتى ما نسيته فانظر من أنساك فإن كان أنساك عنه ما أمرك به فهو معك وأنت مع أمره لا معه وإن كان أنساك ما نهاك عنه فلست معه وليس معك. وقال من اعتمد على غير الحق جعل نصرته فيه مكراً من حيث لا يشعر. وقال غص في بحر العلم بهيكلك تفز بحقائق الأشياء لكن تكن فيك فظاظة وبشاشة لأنك محتاج إلى قوة تشق بها ظلمة الهيكل لكن مشربك عظيم جامع ليس بعده مرمى لرام واسمك أين يخرج من البحر أنا شاهد الحق في قلبك فاسمع مني تكن من الفائزين.

باب شاهد الوزراء

قال الشاهد عليك بحمد الله ينزل عليك كتاب الإيمان وقال اعلم أن الإيمان بالربوبية يزيد في الهدى والإيمان بالألوهية هو الهدى. وقال انظر إلى من كان معك من أجل الله

(١ ـ ١) كذا العبارة بالأصل.

فقربه منك بذلك الميزان يعطيك الحق. وقال أوصيك عن الله يا هذا فإني شاهده فيك وأنا الشفيق اجعلني لك لا تجعلني عليك بين وجهي بين اترابي من الشهداء اسمع وع فحقاً أقول لا ترأس على من تبعك فإنه ما تبعك وإنما تبع سر الحق الذي أودعه فيك وكذلك أودعه في التابع غير أنك علمته منك بإعلام الحق إياك وما علم التابع ما عنده وتلك المناسبة التي جمعت بينكما فإن رأست عليه ووطيته أبدلك الحق مكانه وأبدله مكانك. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨] فالأول معرض للمحن والثاني محفوظ ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ الأول ﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم: ٥] الثاني فافهم ما حذرتك منه.

وقال لجميع الموجودات عند الله قدر وحظ ولذلك اقسم بالكل دلالة على شرفهم وإن كانوا بين شقي وسعيد فراع حظهم عند الحق من هذا الوجه ولا تقل فيمن ليس من جنسك من جماد ونبات وحيوان ليس من جنسي بلى كل من اطاع الله فهو من جنسك إن كنت طائعاً.

وقال إذا أيقظك الحق من رقدة غفلتك فاعمل في خير ما فاتك فحقاً أقول. وقال اطلب المقام المهول الذي لم يشاهده هاله وكن فيه فطناً. وقال من ذاق لذة الوهب لم يفرح بالكسب ولا يقدر على استعماله. وقال أصل كل حجاب وجود اللذة فيه وكل ما دللتك عليه فهي من أوصاف الوزراء القائمين بالقائم بدين الله والمحيي سنته، فالزم باب الله وأصبر نفسك مع أحبابه الذين تحقرهم العيون فذلك الذي رفعهم عند الحق.

باب الشاهد في الأمر الخفي والجلي

قال الشاهد لله رحمتان رحمة سر ورحمة علانية فرحمة السر مستصحبة لوجودك مع الدوام ورحمة العلانية في وقت دون وقت. وقال كن خماسياً واعدل فإنك ناج. وقال لا تسبقك الإناث إلى الحق فينلن ذكوريتك وتنال انوثيتهن. وقال ارجع إلى عدمك فإنه وصف قدمك فإن الله راض عنك فيه وقال من اطاع الحق ومات فإنه لم يمت. وقال اخرق العادة في أخلاقك تخرق لك العادة. وقال النسب الصحيح بالدين لا بالطين. وقال كن مع روحانيتك تكن إلى العلوم أقرب وقال الزم الصدق والإخلاص فبالصدق تعتصم ولا يؤثر فيك شيء وبالإخلاص تصح عبوديتك وربوبيته. وقال اعتبر في الأرواح التي سلفت وعزلت بعد مملكتها إلى أين صارت فإليّ ثم تصير سح في الجو سبع سنين وسح في الأرض سنة تنل جميع الأسرار كلها. وقال إذا ناداك الحق فسمعت صوتاً فلا تجب فليس هو وأنت لمن أجبت.

باب الشاهد الرباني

قال الشاهد إلى الحق انتهاؤك ولا يحجبنك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٤٢] فتقول ليس هو معي في البداية بل هو معك في البداية وفي طريقك وإلى نهايتك لكن تختلف أفعاله فيك وهي اختلاف أحوالك ففي البداية يسويك وفي الطريق يهديك وفي الغاية يملكك ولما كان المنتهى المطلب لذلك أظهر الاسم في المنتهى. وقال من اعتز بالله فهو العزيز السعيد إذا كان خلعة إلاهية وإن لم تكن خلعة شقي به. وقال ضرب الحجاب بينه وبين خلقه فمن رأى اسمه عليه فلا يدخل عليه في حضرته إلا باسمك لا بإسمه. وقال الرب الثابت فلا يزول فلا تزيله.

باب شاهد العلم

قال الشاهد خف الله فله الحكم. وقال كتاب الله علمه وله تنفيذ الحكم في خلقه فما حكم عليك به فأنت له. وقال الكتب كثيرة، كتاب الرحمة المطلقة، وكتاب الغضب المطلق، وكتاب الرحمة المقيدة، وكتاب الغضب المقيد، والكتاب المحفوظ، وكتاب المحو، وكتاب أسماء المرحومين وكتاب أسماء الأشقياء، وكتاب الاحصاء، والكتاب المبين، والكتاب الحكيم، والكتاب المرقوم، والكتاب المسطور، والكتاب العزيز، والكتاب الناطق وغير ذلك من الكتب، وما منها من كتاب إلا لأمر ينفذه في خلقه فيحفظ عنده فإنه لا يبدل. وقال قبل الملك ما أعطاه اللوح، وقبل اللوح ما جرى به القلم، وجرى القلم بتصريف اليمين، وتصرف اليمين عن القدرة والقدرة مبعوث الإرادة وترجمان القول، وأنفق الكل من خزانة العلم والعلم من الحق والحق منه أنت وهو علمه وأنت علمك ليس هو.

باب الحب

قال الشاهد كل محب مشتاق ولو كان موصولاً والحق يحبك. وقال كم يدعوك الحق إليه وأنت تفر منه وهو قادر على ردك إليه فاتك منه لا منك. وقال إذا دعا الأسرار من حضرة الأمر أدبرت لأن سر العزة سار فيها وإذا دعاها من حضرة اللطف أقبلت معترفة بالفقر والعجز إلا اسرار المحبين العارفين فإنهم يقبلون من دعاهم ومن أي حضرة ناداهم فأخبر ذاتك عند النداء بحي على الصلاة فهو نداء حاجب الباب. وقال للأسماء الإلهية حقائق ويجب ظهور سلطانها فالأحوال تتقلب منك بتنوع الأسماء والأسماء تطلبك لا أنا.

باب الصرف

قال الشاهد من طلب العلم فهو جاهل ومن ترك العلم فهو جاهل. وقال يقول من لا

علم له الرؤية تابع العلم وهما لا يجتمعان. وقال معلوم العلم الوجود ومرئي الرؤية الذات. وقال من قال لك تعلم فقد قتلك بسيف الأبد. وقال العلم يغمر منك ما طلبت أن تخليه وتفرغه لاطلاع الحق فلا تتعلم. وقال أنس ما علمت وامح ما كتبت وازهد فيما جمعت. وقال إذا علمت فمتعلق علمك الحق أو غيره تعلقه بالحق محال وتعلقه بالغير حجاب، فأنت بعيد على كل حال فمالك والعلم. وقال العلم ظلمة لا ظلم فيها وليل لاصبح له ومن جاب المفاوز في الظلماء زادتيها على تيه. وقال العلم يطلب معلومه والحق لا يعلم فليس عندك ما يطلبه وإنما كان هذا حتى تكون رؤيتك إياه فضلاً منه فلو كانت عن علمك لكانت كسباً والحق لا يكون كسباً لخلقه. وقال كما يشهد طلبك العلم على جهلك كذلك يشهد على علمك في وقت طلبك.

باب العناية

قال الشاهد إذا كنت للحق لم تعرف وإذا لم تعرف لم يدر القادم على ما يقدم منك فتكون معصوم الذات. وقال إذا كنت للحق لم تتطرق إليك أيدي العداة لأنك تحت حياطة العزة. وقال من كان بغير الحق فقد يكون بالحق وقد لا يكون وإذا كان بالحق فقد يكون صاحب عقد أو صاحب حال فإن كان صاحب عقد فنوره مدخر عند الحق إلى يوم القيامة وإن كان صاحب عقد وحال فهو على نور من ربه ويدخر له نوراً أعلى من نوره فإذا لم يكن بالحق فله الظلمة فلا تتغير بنور الشبهات في صدرك فإنها كالسرج تطفئها الأهواء. وقال كيف يخزي من استند إلى حالي. وقال اذاية الأصفياء من العباد في الدنيا ليس بذلة في حقهم ولا إهانة لأن الذل من نعت القلب وليس في قلوبهم منه شيء لغير الحق فإن ما تلك الإذاية تطهير وتصفية وحكم الموطن والوقت.

باب القضاء

قال الشاهد لا تسأل الحق فإن السؤال لا يبدل ما كتب. وقال لا تسأل الحق حتى ترى ما في كتابه. وقال إن لم تعلم ما يريده الحق بك قبل وقوع المراد منك، فأين عناية المجاورة التي ادعيت. قال الكل في القبضة الإلهية، قدر المقادير ووزن الموازين فلا ينزل شيء إلا بقدر معلوم فمن سأل فما خرج من القضاء ومن ترك السؤال فما خرج من القضاء.

باب القدرة

قال الشاهد الحق بيدك إذا بطشت وبرجلك إذا سعيت وبعينك إذا نظرت وبسمعك إذا سمعت، علمت أن ذلك منه أو لم تعلم فإن كنت طائعاً أعلمك ففائدة الطاعة التعريف.

وقال الوضعيات لا تؤثر في الحقائق لأنها من الحقائق. وقال الحق هو القائل للمبعودين ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٨] وللمقربين ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الزخرف: ٧٠] فقد سمع الكلام الشقي والسعيد فزاد الشقي شقاوة والسعيد سعادة وسبب ذلك الإعراض تجرد عن عرضك تأمن سطوة مرضك. وقال أوف بعهد الحق بالحق لا بك يوف لك بعهدك به لا له فهو القدوس.

باب النكر

قال الشاهد من أحب شيئاً غار عليه ومن غار فهو مع الحب لامع المحبوب، وقال من أحب الحق وغار عليه فما أحبه إلا في حضرة الخيال والحق سبحانه لا يدخل تحت سلطان الوهم والخيال نعم له في كل حضرة تجل فأحبه في تجلي هذه الحضرة. وقال العارف لا يغار بل تعشقه للخلق. وقال من غار على الحق من نفسه كالشبلي فما عرف نفسه. وقال من غار على الحق لم يذكره ومن لم يذكر الحق لم يذكره الحق ومن لم يذكره فهو مبعود. وقال أنت تحجبك مشاهدة المذكور عن الذكر والحق يشهدك ويذكرك. وقال غر للحق ولا تغر عليه. وقال لا تكون الغيرة حجاباً إلا للعارف وأما لغير العارف فإنها له عين القرب ودليله زوال الغيرة عنه عند المعرفة.

باب المنة

قال الشاهد حجاب الغيرة لا يرفع. وقال رؤيتك للحق حجاب عنك منه. وقال إنما تعرف أنك رأيته من خلف حجاب إذا رجعت إلى قصرك ضابطاً لما رأيته والحق لا يضبطه مخلوق هنالك تعرف من رأيت. وقال في رؤيتك إياه مشهود وشاهد وهو المشهود والشاهد ما حصل لك من رؤيته وهو الذي ينقلب معك وعنه تعبر لأهل منزلك فالشاهد مرئيك لا هو. وقال رؤية القلوب على قدر صفائها ورؤية الأبصار على قدر قلوبها والبصر أتم ولهذا كان الغاية. وقال ترى الحق بالبصيرة في الدنيا وبالبصر في الأخرى والآخرة أعلى فالبصر أعلى.

باب العبادة

قال الشاهد لك الذكر والدعاء، وللحق الذكر والدعاء، فإن ذكرته ذكرك وإن قلت له يا رب قال لك يا عبد وإن قلت أعطني قال لك أقرضني. وقال الدعاء عبادة والذكر سيادة، فمن دعاه وصل إليه ودخل عليه، ومن ذكره فهو عنده والدعاء نداء والنداء بعد. وقال لنفسك عليك حق فادع الحق من أجل الجنة لنفسك فاذكره له فالذكر لله والدعاء لما عند

الله. وقال لولا الشاردون ما أرسل الحق المنادى يمسك عليهم الطريق لكي يرجعوا إليه. وقال شارد من نور إلى ظلمة وشارد من ظلمة إلى نور وشارد من نور إلى نور وشارد من ظلمة إلى ظلمة ولله قوم رأوه في كل شيء فلم يشردوا من شيء إلى شيء.

باب النسك والتسخير

قال الشاهد المقام يطلبك وأنت لمن أحببت وقال الحق مرئي في المقام محجوب في الحال. وقال المقام يحجبك إن نظرت الحق فيه أو نظرته في الحق ولا ينفك فهو العزيز عن الإدراك. وقال قالت الملائكة ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ [الصافات: ١٦٤] بينك وبين الحق فمن استغفر لك فهو ذكر الحق لك فهو معك ومن لم يذكرك فهو مع نفسه للحق لا لك فله معرفتان وكلما قلت المعارف والعلوم عظم المقام. وقال الأحوال مهلكة والمقامات منجية غير أن الدعوى في المقام مهلك والدعوى في الحال غير مأخوذ به صاحبه. وقال أنت في الحال مع الحق وفي المقام مع نفسك. وقال صاحب الحال يصحو ومن صحا شهد على نفسه بالبعد وصاحب المقام ينتقل فكيف ما كنت فأنت صاحب تلوين.

باب السلب

قال الشاهد لا أقول لك تجرد من هيكلك ولا انسلخ من ظلمتك ولا اسبح في بحار سبحات روحانيتك ولا جل في ميادين تقديس ذاتك كل ذلك لترى الحق أو يهب عليك نسيم جود مشاهدته أو يكون ذلك تعريضا لنفحاته لا أفعل ذلك مطلقاً لأن فيه نسبة العجز إلى الحق وتعظيم الكون في جنابه وهو لا يقاومه شيء فمتى سمعته منه فهو داعيك إلى مقام من جملة المقامات التي لك عنده وهو معك في الموطن الذي دعاك فيه أن تتجرد منه فلا يحجبنك خطابه لما ليس عندك عن مشاهدته فيما هو عندك وروح القدس تطلب الحق على غربته عندك كما تطلبه أنت على حبسك في ظلمة هيكلك وكلاكما عاجز وليس رؤية الحق عند المحقق في نور القدس بأظهر ولا أوضح من رؤيته في ظلمة الطين وهو على كل شيء قدير كما لا يعزب عن الحق شيء كذلك لا يعزب عن شيء.

باب شاهد الغيب

عين قلبك في المثال كعين وجهك فلا يرى إلا بعد نفوذه السبع الطباق التي جعلت جنة بينه وبين الآفات فمشيميته طبقة كونه، وصلبيته طبقة وصفة وشبكيته طبقة تعلقه وعنكبوتيته طبقة تداخل الخواطر عليه وعينيته طبقة تخليصه وفي قرنيته طبقة رمانه وملتحمته طبقة وصلته بما يعرف فإذا نفذ هذه الطباق وتصفح هذه الأوراق حينئذ ينفذ إلى أول منزل

من منازل الغيب وهو منزل نور الضياء والظلال التي يقع بوجودهما الإدراك والنعيم. وقال عين قلبك وإن أعطى العلم فلا يزال خلف الحجاب حتى يؤيده البصر. وقال أعلى معارفك التي في عين قلبك هي التي فطرها الحق عليها أو ما اعطاها الحس بارتفاع الموانع. وقال في الحس سر الحق في الخلق وهو مطلع الصديقيين.

بابـ الوفاء

قال الشاهد من ترك حقاً له على زيد ليأخذه ممن ضمنه عنه وهو عمرو فما تركه ومن ترك حقاله على زيد عن أمر عمر وليأخذه من عمرو بأمر عمرو فلم يأخذه كان معانداً. وقال لك على الحق حق وله عليك حق فإن وهبته حقك لم يهبك حقه لأنه لا يتصور أن يقبل هبتك له الذي لك عليه فإنه لا يأخذه ولا يجد لم يعطيه فقد علم كل شخص مشربه فلا بد أن يرده عليك فمن وهب الحق حقه لم يعرف مراتب الوجود فلم يعرف الحق. وقال هب الحق حقه فإنه عوض عنه. وقال العفو وإصلاح ذات البين سعي في البقاء ومن سعى في البقاء أبقى في مجاورة الحق فإن ذلك له. وقال خذ حق الحق ولا تأخذ حقك فإنه يأخذ حق العبد ولا يأخذ حقه منك فمن أخذ حق الحق ولم يأخذ حقه فهو للحق وله ولغيره بالشفاعة فيه.

بابـ الباطن

قال الشاهد من جاء إلى الحق بشيء جاء الحق به إليه. وقال الظاهر والباطن أخوان مزدوجان لا ينفصلان فمن عرف الواحد عرف الآخر.

وقال إنما بطن الحق لمن ظهر له لئلا يفنى فإنه من ظهر للحق بنفسه يفنى. وقال إنما يظهر الحق لمن ظهر له به فإنه لا يقوى على ظهوره غيره.

وقال مطلع الحق في حده كبأسه في حديده وكهو في خلقه وقال حد الحق لا تعرفه إلا من رسولك، فمن وقف عنده من الرسول اطلع الحق عليه ومن اطلع عليه لا يشقى. وقال من وقف عند حد فمطلعه غير الحق وإن دله على الحق فذلك حد لا مطلع له من الحق لكن له مطلع من شكله فمن رعى حداً ما رعى مطلع ذلك الحد. وقال من تقرب إلى الحق بما ليس للحق قربه الحق سواء كان ذلك على حد الحق أو لم يكن.

بابـ العزة

قال الشاهد إن كنت ميتاً لا تدركه وإن كنت حياً تفنيك سبحات وجهه فعلى كل حالة لن تراه. وقال الحياة التي تفنيها السبحات حياة الخلق فلا تبقى حياة إلا الحياة التي تنظر

إليها حياة الحق.

وقال عالم التركيب له أدوات وعالم البسيط له حوافظ فكلا العالمين في غاية الافتقار ولا ينبغي إلا للحق.

وقال ما في الحياة آفة إلا الدعوى لأن الحركة معها وما سكن وإن كان متحركاً فهو للحق.

وقال ما في الموت شرف إلا ترك الدعوى لأنه ساكن وما تحرك فليس للحق، المناسبة بين الحق والسكون الثبات، والمناسبة بين الحق والحركة تنوع الأسماء، فله الحركة وله السكون ففي أيهما تجلى فلا تبالي.

وقال من طلب الحق بموته وجده يحييه بحياته ومن طلبه بحياته وجده يقويه ويحفظها عليه ما لم يظهر منه أنه حي بغيره فان بغيره أماته فإنه لا يقاوم.

باب تنزل الربوبية

قال الشاهد الإيجاد للحق والكسب لك ولكل نفس ما كسبت. وقال إن حاسبك وطالبك كان الحجة له لا لك أرأيت إن قلت له أنت اقمتني في هذا يقول لك أنا قلت لنفسي بك أنت اقمتني في هذا فاردتك فالكل مني فلا يسأل عما يفعل. قال للخلق عند الحق قدمان قدم صدق وقدم شقاوة.

وقال الأزل ينعقد عليه الأبد بما هو عليه والخاتمة عين السابقة فلا تكترث.

وقال أنت في دار المزاج لأنك في عالم الأمشاج فتداخلت الصور في الصور وغابت الأشكال في الأشكال. وقال للحق قبضة يحكم فيها الأبد وله قبضة يحكم في القنطرة فمن عرف سابقته عرف حاله في حشره.

باب المغالبة

قال الشاهد أنت مقهور وتطلب مغالبة القوي العزيز. وقال من لا يقاوم إذا نزل إلى المقاومة فغلب فهو الغالب ومن غالب ضعيفاً فإنما يريد أن يعلي همته أو يستدرجه ومن غالب من هو أقوى منه فهو جاهل.

وقال المبتدي بطلب السلم ضعيف. وقال يا أيها الإنسان خلقت ضعيفاً وتأبى إلا القوة. وقال من طلب الحق ما عرفه ومن وصفه ما عرفه.

باب الوكالة

قال الشاهد لا بد لمن أراد أن يعرف مراتب الوجود أن يدخل إليها وفي الدخلة فيها حل تركيبه فإن كل مرتبة تطلب مناسبتها منه إلى أن تنتهي إلى رتبة الحق ثم يرجع فيتركب فيظهر العين وقد احاط الحقائق علماً.

وقال خلق الكون للكون وحفظه للحق ليشتغل به ويترك الكون موكلاً عليه الحق وأنت الجعل للوكيل. وقال وقتك نفسك فليس له مدة. وقال لا تعجب بإقامة عبوديتك في جانب الربوبية فإن الجمادات أعبد منك لأن عبادتها ذاتية. وقال أمره قوله وقوله صفته وصفته هو فهو بحيث أمره فمن سمع أمره فقد رآه.

وقد سبح الحق إذا أمرك فقد كنت ولا أمر وما حدث عنده ما لم يكن.

وقال الوحي سار في الخلق مع كونه متفاضلاً. وقال الحق بحر قعره الأزل وساحله الأبد فاركب سفينة ذاتك ولا ترفع شراعاً فإن الغرض طلب الساحل ولا ساحل فاترك الموج يسيرك فإني أخاف عليك من الشراع أن يوكلك الحق إلى تدبيرك. وقال موج هذا البحر موج بلا زبد لأنه لا يعتمد بعضه على بعض.

وقال ليس العجب من هذا البحر وإنما العجب من الريح التي تموجه الأوان الريح أنفاسك فكل سفينة لا يكون ريحها منها فهي فقيرة فعليك بوحي الماء في حق نفسك وبوحي الخمر في حق صحتك وبوحي العسل في حق روحك وبوحي اللبن في حق من يبلغه كلامك ولا يراك فإنه أنحى وأرجا وأنجى. استوفى الوارد.

والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

كتاب نقش الفصوص



اللهم بارك علي وتممه

١ ـ فص: ـ حكمة الهية في كلمة ـ آدمية ـ اعلم أن الأسماء الحسنى تطلب بذواتها وجود العالم فأوجد الله العالم جسداً مسوى وجعل روحه آدم عليه السلام وأعني بآدم وجود العالم الإنساني وعلمه الأسماء كلها فإن الروح هو مدبر البدن بما فيه من القوى وكذلك الأسماء للإنسان الكامل بمنزلة القوى ولهذا يقال في العالم إنه الإنسان الكبير ولكن بوجود الإنسان فيه وكان الإنسان مختصراً من الحضرة الإلٰهية ولذلك خصه بالصورة فقال إن الله خلق آدم على صورته وفي رواية على صورة الرحمٰن.

وجعله الله العين المقصودة من العالم كالنفس الناطقة من الشخص الإنساني ولهذا تخرب الدنيا بزواله وتنتقل العمارة إلى الآخرة من أجله فهو الأول بالقصد والآخر بالإيجاد والظاهر بالصورة والباطن بالسورة أي المنزلة فهو عبد الله ورب بالنسبة للعالم ولذلك جعله خليفة وأبناءه خلفاء ولهذا ما ادعى أحد من العالم الربوبية إلا الإنسان لما فيه من القوة وما أحكم أحد من العالم مقام العبودية في نفسها إلا الإنسان فعبد الحجارة والجمادات التي هي أنزل الموجودات فلا أعز من الإنسان بربوبيته ولا أذل منه بعبوديته فإن فهمت فقد أبنت لك عن المقصود بالإنسان فانظر إلى عزته بالأسماء الحسنى وطلبها إياه تعرف عزته ومن ظهوره بها تعرف ذلته فافهم ومن هنا تعلم أنه نسخة من الصورتين الحق والعالم.

٢ ـ فص: ـ حكمه نفثية في كلمة شيثية ـ اعلم أن عطيات الحق على أقسام، منها أنه يعطي لينعم خاصة من اسمه الوهاب وهي على قسمين هبة ذاتية وهبة أسمائية، فالذاتية لا تكون إلا بتجل للاسماء وأما الأسمائية فتكون مع الحجاب ولا يقبل القابل هذه الأعطية إلا بما هو عليه من الاستعداد وهو قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] فمن ذلك الاستعداد قد يكون العطاء عن سؤال بالحال لا بد منه أو عن سؤال بالقول، والسؤال بالقول على قسمين، سؤال بالطبع، وسؤال امتثال للأمر الإلهي، وسؤال بما تقتضيه الحكمة

والمعرفة لأنه أمير مالك يجب عليه أن يسعى في إيصال كل ذي حق إلى حقه مثل قوله، إن لأهلك عليك حقاً ولنفسك ولعينك، ولزورك، الحديث.

٣ ـ فص: ـ حكمة سبوحية في كلمة نوحية ـ التنزيه من المنزه تحديد للمنزه إذ قد ميزه عما لا يقبل التنزيه فالإطلاق لمن يجب له هذا الوصف تقييد فما ثم إلا مقيد أعلاه بإطلاقه.

وأعلم أن الحق الذي طلب من العباد أن يعرفوه هو ما جاءت به ألسنة الشرائع في وصفه فلا يتعداه عقل قبل ورود الشرائع فالعلم به تنزيهه عن سمات الحدوث فالعارف صاحب معرفتين بالله معرفة قبل ورود الشرائع ومعرفة تلقاها من الشرائع ولكن شرطها أن يرد علم ما جاءت به إلى الله فإن كشف له عن العلم بذلك فذلك من باب العطاء الإلهي الذاتي وقد تقدم في شيث.

٤ ـ فص: ـ حكمة قدوسية في كلمة إدريسية ـ العلو علوان علو مكان مثل قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] والعما والسماء وعلو مكانة ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] والناس بين علم وعمل فالعمل للمكان والعلم للمكانة، وأما علو المفاضلة فقوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ فهذا راجع إلى تجليه في مظاهره فهو في تجل ما أعلى منه في تجل آخر مثل ﴿كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ ومثل ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] ومثل، جعت فلم تطعمني.

٥ ـ فص: ـ حكمة مهيمنية في كلمة إبراهيمية ـ لا بد من إثبات عين العبد وحينئذ يصح أن يكون الحق سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله فعم قواه وجوارحه بهويته على المعنى الذي يليق به وهذه نتيجة حب النوافل وأما حب الفرائض فهو أن يسمع الحق بك ويبصر بك والنوافل تسمع به وتبصر به فقدرك بالنوافل على قدر استعداد المحل وتدرك بالفرائض كل مدرك فافهم.

٦ ـ فص: ـ حكمة حقية في كلمة إسحاقية ـ اعلم أن حضرة الخيال هي الحضرة الجامعة الشاملة لكل شيء وغير شيء فلها على الكل حكم التصوير وهي كلها صدق ـ وتنقسم قسمين، قسم يطابق لما صورته الصورة من خارج وهو المعبر عنه بالكشف، وقسم غير مطابق وفيه يقع التعبير والناس هنا على قسمين، عالم ومتعلم، والعالم يصدق في الرؤيا، والمتعلم يصدق الرؤيا حتى يعلمه الحق ما أراد بتلك الصورة التي حل له.

٧ ـ فص: ـ حكمة علية في كلمة إسماعيلية ـ وجود العالم الذي لم يكن ثم كان يستدعي نسباً كثيرة في موجده أو اسماً ما شئت فقل لا بد من ذلك وبالمجموع يكون وجود العالم فالعالم موجود عن إحدى الذات منسوب إليها أحدية الكثرة من حيث الأسماء لأن

حقائق العالم تطلب ذلك منه ثم العالم إن لم يكن ممكناً فما هو قابل للوجود فما وجد العالم إلا عن أمرين، عن اقتدار إلهي منسوب إليه ما ذكرناه، وعن قبول فإن المحال لا يقبل التكوين ولهذا قال تعالى عند قوله: ﴿كُن﴾ قال: ﴿فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] فنسب إلى العالم من حيث قبوله.

٨ ـ **فص**: ـ حكمة روحية في كلمة يعقوبية ـ الدين عند الله الإسلام ومعناه الانقياد ومن طلب منه أمراً فانقاد إلى الطالب فيما طلب فهو مسلم فافهم فإنه نسري والدين دينان دين مأمور به. وهو ما جاءت به الرسل ودين معتبر وهو الابتداع الذي فيه تعظيم الحق فمن رعاه حق رعايته ابتغاء رضوان الله فقد أفلح والأمر الإلٰهي أمران ـ أمر بواسطة فما فيه من الأمر الإلٰهي إلا صيغته واسطة وهو الذي لا يتصور مخالفته وبالواسطة قد يخالف وليس وأمر بلا المأمور بلا واسطة وإلا لكان خاصة لا الموجود.

٩ ـ **فص**: ـ حكمة نورية في كلمة يوسفية ـ النور يكشف ويكشف به وأتم الأنوار وأعظمها نفوذ النور الذي يكشف به ما أراد الله بالصور المتجلية المرئية في النوم وهو التعبير لأن الصورة الواحدة تظهر له معان كثيرة مختلفة يراد منها في حق صاحب الصورة معنى واحد فمن كشفه بذلك النور فهو صاحب النور فإن الواحد يؤذن فيحج وآخر يؤذن فيسرق وصورة الأذان واحدة وآخر يؤذن فيدعو إلى الله على بصيرة والآخر يؤذن فيدعو إلى ضلالة.

١٠ ـ **فص**: ـ حكمة أحدية في كلمة هودية ـ غايات الطرق كلها إلى الله والله غايتها فكلها صراط مستقيم لكن تعبدنا الله بالطريق الموصل إلى سعادتنا خاصة وهو ما شرعه لنا فللأول وسعت رحمته كل شيء فالمآل إلى السعادة حيث كان العبد وهو الوصول إلى الملائم ومن الناس من نال الرحمة من عين المنة ومنهم من نالها من حيث الوجوب ونال سبب حصولها من عين المنة، وأما المتقي فله حالان حال يكون فيه وقاية لله من المذام وحال يكون الله له وقاية فيه وهو معلوم.

١١ ـ **فص**: ـ حكمة فتوحية في كلمة صالحية ـ لما أعطت الحقائق أن النتيجة لا تكون إلا عن الفردية والثلاثة أول الأفراد جعل الله إيجاد العالم عن نفسه وإرادته وقوله، والعين واحدة والنسب مختلفة، فقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠] ولا يحجبنك تركيب المقدمات في النظر في المعقولات فإنها وإن كانت أربعة فهي ثلاثة لكون المفرد الواحد من الأربعة يتكرر في المقدمتين فافهم، فالتثليث معتبر في الانتاج والعالم نتيجة بلا شك.

١٢ ـ **فص**: ـ حكمة قلبية في كلمة شعيبية ـ اعلم أن القلب وإن كان موجوداً من رحمة

فإنه أوسع من رحمة الله لأن الله أخبر أن قلب العبد وسعه ورحمته لا تسعه فإنها لا يتعلق حكمها إلا بالحوادث وهذه مسألة عجيبة إن عقلت، وإذا كان الحق كما ورد في الصحيح يتحول في الصور مع أنه في نفسه لا يتغير من حيث هو فالقلوب له كأشكال الأوعية للماء يشكل يشكلها مع كونه لا يتغير عن حقيقته فافهم ألا ترى أن الحق كل يوم هو في شأن كذلك القلب يتقلب في الخواطر ولذلك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] ولم يقل، عقل، لأن العقل يتقيد بخلاف القلب فافهم.

١٣ ـ فص: حكمة ملكية في كلمة لوطية ـ قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾ [الروم: ٥٤] فالضعف الأول بلا خلاف ضعف المزاج في العموم والخصوص والقوة التي بعده قوة المزاج وينضاف إليه في الخصوص قوة الحال، والضعف الثاني ضعف المزاج وينضاف إليه في الخصوص ضعف المعرفة أي المعرفة بالله بضعفه حتى يلصقه بالتراب فلا يقدر على شيء فيصير في نفسه عند نفسه كالصغير عند أمه الرضيع ولذلك قال لوط ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] يريد القبيلة ويقول رسول الله ﷺ، «لرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، يريد ضعف المعرفة» فالركن الشديد هو الحق مدبره ومربيه.

١٤ ـ فص: ـ حكمة قدرية في كلمة عزيرية ـ لله الحجة البالغة على خلقه لأنهم المعلومون والمعلوم يعطي العالم ما هو عليه في نفسه وهو العلم ولا أثر للعلم في المعلوم فما حكم على المعلوم إلا به واعلم أن كل رسول نبي وكل نبي ولي وكل رسول ولي.

١٥ ـ فص: ـ حكمة نبوية في كلمة عيسوية ـ من خصائص الروح أنه ما يمر على شيء إلا حيي ذلك الشيء ولكن إذا حيي يكون تصرفه بحسب مزاجه واستعداده لا بحسب الروح فإن الروح قدسي ألا ترى أن النفخ الإلهي في الأجسام المسواه مع نزاهته وعلو حضرته كيف يكون تصرفه بقدر استعداد المنفوخ فيه ألا ترى السامري لما عرف تأثير الأرواح كيف قبض فخار العجل فذلك استعداد المزاج.

١٦ ـ فص: ـ حكمة رحمانية في كلمة سليمانية ـ لما كانت له من حيث لا يشعر قالت بالقوة في كتاب سليمان إنه كتاب كريم وما ظهر آصف بالقوة على الإتيان بالعرش دون سليمان إلا ليعلم الحق أن شرف سليمان عظيم إذ كان لمن هو حسنة من حسناته له هذا الاقتدار ولما قالت في عرشها ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ عثور على علمها بتجديد الخلق في كل زمان فأتت بكاف التشبيه وأراها صرح القوارير كأنه لجة وما كان لجة كما أن العرش المربي ليس عين العرش من حيث الصورة والجوهر واحد وهذا سار في العالم كله والملك الذي لا

ينبغي لأحد من بعده الظهور بالمجموع على طريق التصرف فيه تسخير الرياح تسخير الأرواح النارية لأنها أرواح في رياح بغير حساب لست محاسباً عليها.

١٧ ـ **فص**: ـ حكمة وجودية في كلمة داودية ـ وهب لداود فضلاً معرفة به لا يقتضيها عمله فلو اقتضاها عمله لكانت جزاء، ووهب له فضلاً سليمان عليه السلام فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾ [ص: ٣٠] وبقي قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً﴾ [سبأ: ١٠] هل هذا العطاء جزاء أو بمعنى الهبة وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] ببنية المبالغة ليعم شكر التكليف وشكر التبرع فشكر التبرع أفلا أكون عبداً شكوراً، قول النبي عليه السلام وشكر التكليف ما وقع به الأمر مثل واشكروا لله وأشكروا نعمة الله وبين الشكرين ما بين الشكورين لمن غفل عن الله، وداود منصوص على خلافته والإمامة وغيره ليس كذلك، ومن اعطى الخلافة فقد أعطى التحكم والتصرف في العالم ترجيع الجبال معه بالتسبيح والطير توذن بالموافقة فموافقة الإنسان له أولى.

١٨ ـ **فص**: ـ حكمة نفسية في كلمة يونسية ـ عادت بركته على قومه لأن الله أضافهم إليه وذلك لغضبه فكيف لو كان فيه حاله حال الرضا فظن بالله خيراً فنجاه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين يعني الصادقين في أحوالهم ومن لطفه أنبت عليه شجرة من يقطين إذ خرج كالفرخ فلو نزل عليه الذباب أذاه لما ساهمهم أدخل نفسه فيهم فعمت الرحمة جميعهم.

١٩ ـ **فص**: ـ حكمة غيبية في كلمة أيوبية ـ لما لم يناقض الصبر الشكوى إلى الله ولا قاوم الاقتدار الإلهي لصبره وعلم هذا منه أعطاه الله أهله ومثلهم معهم وركض برجله عن أمر ربه فأزال بتلك الركضة آلامه ونبع الماء الذي هو سر الحياة السارية في كل حي طبيعي فمن ماء خلق وبه يرى فجعله رحمة له وذكرى لنا وله ورفق به فيما نذره تعليماً لنا ليتميز في الموفين بالنذر وجعلت الكفارة في أمة محمد ﷺ لسترهم عما يعرض لها من العقوبة في الحنث والكفارة عبادة والأمر بها أمر بالحنث إذ رأى خيراً مما حلف عليه فراعى الإيمان وإن كان في معصيته فإنه ذاكر لله فيطلب العضو الذاكر نتيجة ذكره إياه وكونه في معصية أو طاعة حكم آخر لا يلزم الذاكر منه شيء.

٢٠ ـ **فص**: ـ حكمة جلالية في كلمة يحيوية ـ أنزله منزلته في الأسماء فلم يجعل له من قبل سمياً فبعد ذلك وقع الاقتداء به في اسمه ليرجع إليه وآثرت فيه همة أبيه لما أشرب قلبه من مريم وكانت منقطعة من الرجال فجعله حصوراً بهذا التخيل والحكماء عثرت على مثل هذا فإذا جامع احد أهله فليخيل في نفسه عند إنزاله الماء أفضل الموجودات فإن الولد يأخذ من ذلك بحظ وافر إن لم يأخذ كله.

٢١ ـ فص: ـ حكمة مالكية في كلمة زكرياوية ـ لما فاز زكريا برحمة الربوبية ستر نداءه ربه عن أسماع الحاضرين فناداه بسره فأنتج من لم تجر العادة بإنتاجه فإن العقم مانع ولذلك قال الريح العقيم وفرق بينها وبين اللواقح وجعل الله يحيى ببركة دعائه وارث ما عنده فأشبه وارث جماعة من آل إبراهيم.

٢٢ ـ فص: ـ حكمة إيناسية في كلمة إلياسية ـ يقول أحسن الخالقين ويقول الله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] فخلق الناس التقدير وهذا الخلق الآخر الإيجاد.

٢٣ ـ فص: ـ حكمة إحسانية في كلمة لقمانية ـ لما علم لقمان أن الشرك ظلم عظيم للشريك مع الله فهو من مظالم العباد وله الوصايا بالجناب الإلهي وصايا المرسلين وشهد الله له بأنه أتاه الحكمة فحكم بها نفسه وجوامع الخير.

٢٤ ـ فص: ـ حكمة إمامية في كلمة هارونية ـ هارون لموسى بمنزلة نواب محمد ﷺ بعد انفصاله إلى ربه فلينظر الوارث من ورث وفيما استنيب فتعينه صحة ميراثه ليقوم فيه مقام رب المال فمن كان على أخلاقه في تصرفه كان كأنه هو.

٢٥ ـ فص: ـ حكمة علوية في كلمة موسوية ـ سرت إليه حياة كل من قتله فرعون من أجله ففراره لما خاف إنما كان لإبقاء حياة المقتولين فكأنه في حق الغير فأعطاه الله الرسالة والكلام والإمامة التي هي الحكم كلمة الله في غير حاجته لاستفراغ همه فيها فعلمنا أن الجمعية مؤثرة وهو الفعل بالهمة ولما علم علم من علم مثل هذا ضل عن طريق هداه حين اهتدى غيره به فأقامه مقام القرآن في المثل المضروب فقال: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] وهم الخارجون عن طريق الهدى الذي فيه.

٢٦ ـ فص: ـ حكمة صمدية في كلمة خالدية ـ جعل آيته بعد انتقاله إلى ربه فأضاع ألائه وأضاع قومه فأضاعوه ولهذا قال ﷺ في ابنته مرحباً بابنته نبي أضاعه قومه وما أضاعه إلا بنوه حيث لم يتركوا الناس ينبشونه لما يطرأ على العرب من العار المعتاد.

٢٧ ـ فص: ـ حكمة فردية في كلمة محمدية ـ معجزته القرآن والجمعية إعجاز على أمر واحد لما هو الإنسان عليه من الحقائق المختلفة كالقرآن بالآيات المختلفة بما هو كلام الله مطلقاً وبما هو كلام الله وحكاية الله فمن كونه كلام الله مطلقاً هو معجز وهو الجمعية وعلى هذا يكون جمعية الهمة ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ [التكوير: ٢٢] أي ما ستر عنه شيء ولا ﴿بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤] فما بخل بشيء مما هو لكم ولا بظنين أي ما يتهم في أنه بخل بشيء

من الله هو لكم الخوف مع الضلال قال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم: ٢] أي ما خاف في حيرته لأنه من علم أن الغاية في الحق هي الحيرة فقد اهتدى فهو صاحب هدى وبيان في إثبات الحيرة.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وسلم.

الوصية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال النبي ﷺ «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله»، لا تحقر شيئاً من عملك فإن الله ما احتقره حين خلقه وأوجبه فإنه ما كلف بالأمر إلا وله بذلك اعتناء وعناية حتى كلفك به مع كونك في المرتبة أعظم عنده فإنك محل لوجود ما كلفك به. كان عليه السلام يمزح ولا يقول إلا حقاً وقال «هل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»، وقال بعض الحكماء لا شيء أحق بطول السجن من اللسان وقد خلقه الله خلف الشفتين والأسنان ومع هذا يفتح الأبواب ويكثر الفضول، وعليك بعيادة المرضى لما فيه من الاعتبار لأن الله عند عبده إذا مرض ألا ترى المريض ماله استعانة إلا بالله ولا ذكر إلا الله فلا يزال الحق بلسانه منطوقاً وفي قلبه التجأ إليه، والمريض لا يزال مع الله أي مريض كان لحضور الله عنده، وأطعم السائل وأسقه فإنه أنزلك منزل الحق الذي يطعم عباده ويسقيهم، وقد أمرك بالإنفاق مما هو مستخلف فيه فلا ترد سائلاً ولو بكلمة طيبة وطلق الوجه مسروراً به، وكان الحسن والحسين رضي الله عنهما إذا سأله السائل سارع إليه بالعطاء ويقول أهلاً والله وسهلاً تحمل زادي إلى الآخرة، وإياك وظلم العباد فإن الظلم ظلمات يوم القيامة وظلم العباد أن تمنع حقوقهم التي أوجب الله عليك أداءها، ولا تنهر السائل مطلقاً فإن الجائع يطلب الطعام والضال يطلب الهداية.

وإذا رأيت عالماً لم يعمل بعلمه فاعمل أنت بعلمه حتى توفي العلم حقه ولا تنكر عليه فإن له درجة علمه عند الله، وعليك بالتجمل فإنه عبادة مستقلة لقوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾ [الأعراف: ٣١] أن رجلاً قال له عليه السلام أحب أن يكون نعلي حسناً وثوبي حسناً فقال عليه السلام، «إن الله جميل يحب الجمال»، وقال «إن الله أولى أن تتجمل له»، وعليك بمراقبة الله فيما أخذ منك وفيما أعطاك فإنه ما أخذ منك إلا لتصبر فيحبك فإنه يحب الصابرين وإذا أحبك عاملك معاملة المحب محبوبه وما من شيء يزول عنك إلا وله عوض سوى الله.

لكل شيء إذا فارقته عوض ... وليس لله إن فارقت من عوض

وكذلك إذا أعطاك فإن من جملة ما أعطاك الصبر على ما أخذه منك فأعطاك الشكر

وهو يحب الشاكرين، وقال موسى يا رب ما حق الشكر؟ قال إذا رأيت النعمة مني فذلك حق الشكر، وعليك بأداء الأوجب من حق الله وهو أن لا تشرك به شيئاً من الشرك الخفي الذي هو الاعتماد على الأسباب الموضوعة والركون إليها بالقلب فإن ذلك من أعظم رزية دينية في المؤمن وهو المراد بقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦] وقال عليه السلام «أتدرون ما حق الله على العباد؟ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»، فدخل فيه الشرك الخفي والجلي الذي هو قطع الإسلام ثم قال أتدرون ما حقهم على الله إذا فعلوا ذلك؟ أن لا يعذبهم وذلك بأن لا تتوجه إلا إلى الله عذبهم بالاعتماد بالاعتماد على الأسباب لأنها معرضة للفقر ففي حال وجودها يعذبهم بتوهم فقدها وبعد فقدها بفقدها فهم معذبون دائماً وإذا لم يشركوا استراحوا ولم ينالوا بفقدها ألماً.

وإياك أن تريد علواً في الأرض فإن من أراده أراد الولاية وقال عليه السلام أنها يوم القيامة حسرة وندامة، والزم الخمول ولا تطلب من الله إلا أن تكون صاحب ذلة ومسكنة وخشوع وخضوع وكل من أوصاك بما في استعماله سعادتك فهو رسول من الله إليك فاشكره عند ربك، وكن ممن علم وعمل به ولا تكن ممن علم ولا يعمل به فتكون كالسراج يضيء للناس ويحترق، وعليك بتودد المؤمنين فإنهم كجسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى.

قال عليه السلام: «إن الجليس الصالح كصاحب المسك إن لم يصبك منه أصابك من ريحه، والجليس السوء كصاحب الكير إن لم يصبك من شرره أصابك من دخانه»، وعليك بإقامة حدود الله فيمن ولاك فإنك مسؤول عنه وأقل الولايات نفسك فأقم حدود الله فيها، وإذا خطر ببالك خير فذلك لمة الملك فإن نهاك عنه مانع فذلك لمة الشيطان، ولا تعرف الخير والشر إلا بتعريف الشرع فتعين عليك طلب علم الشريعة لإقامة حدود الله تعالى، وعليك بإسباغ الوضوء خاصة في البرد فإنه عليه السلام قال «ألا أنبئكم ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره»، وعليك بالاغتسال في كل جمعة فإن الغسل في الأسبوع مطهر للبدن مرضي للرب أي العبد فعل فعلاً يرضى الله به من حيث إن الله أمره بذلك فامتثل هو بأمره، وعليك بالصلاة المكتوبة بالجماعة وإن المراد بذلك الاجتماع على إقامة الدين، والتهجد أن تنام من أول الليل ثم تقوم إلى الصلاة ثم تنام ثم تقوم إليها إلى أن يطلع الفجر.

وقد ذهب ابن راهويه إلى أن من لم يذكر التسبيحات لم تصح صلاته فاخرج من الخلاف ما استطعت، وعليك بالجهاد الأكبر وهو جهاد هواك قال الله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣] ولا أكفر من نفسك فإنها تكفر نعمة الله عليها وإذا

جاهدت نفسك بهذا الجهاد خلص لك الجهاد الأكبر الذي إن قتلت فيه كنت من الأحياء الذين عند ربهم يرزقون فرحين بما أتاهم الله من فضله، ولا يزال العبد في الجهاد الأكبر لأنه مجبول على خلاف ما دعاه إليه الحق فإنه بالأصالة متبع لهواه الذي هو بمنزلة الإرادة في حق الحق فيفعل الحق ما يريده ويريد الإنسان أن يفعل ما يهوى، احفظ حق الجار والجوار وقدم الأقرب داراً فالأقرب ولا تحقر أحداً من الخلق فإن الله ما احتقره حين خلقه، قيل مر عيسى عليه السلام بخنزير فقال له مر بالسعادة قيل له في ذلك فقال لا أعود لساني إلا قول الخير قال الشاعر:

إنما الناس حديث بعدهم ... فلتكن خير حديث يسمع
وإذا شاكتك منهم شوكة ... فلتكن أقوى مجن يدفع
وإذا ما كنت فيهم هكذا ... أنت والله إمام ينفع

وإياك والخيلاء فارفع ثوبك فوق كعبك أو إلى نصف ساقك لقوله عليه السلام، «إزرة المؤمن إلى نصف ساقه»، وقال عليه السلام لعلي رضي الله عنه، «تقصيرك الثوب حقاً أبقى وأتقى وأنقى» وعليك بالبذاذة فإنها من الإيمان وهي عدم الترفه في الدنيا، وقد ورد اخشوشنوا وهي من صفات الحاج وصفة أهل يوم القيامة فإنهم شعث غبر حفاة عراة فإن ذلك أنفى للكبر والبعد من العجب والزهو والخيلاء والصلف ولا شك أنها أذى في طريق سعادة المؤمن ولا يماط هذا الأذى إلا بالبذاذة فلذلك جعلها عليه السلام من الإيمان، وعليك بالحياء فإن الله حيي والحياء من الله ترك كل ما لا يرضي الله به وعليك النصيحة لقوله عليه السلام، «الدين النصيحة»، والناصح في دين الله هو الذي يؤلف بين عباده وبين ما فيه سعادتهم وهو يحتاج إلى علم كبير وعقل وفكر صحيح وروية حسنة واعتدال مزاج فلا يصلح لها كل واحد، وعليك بالورع في المنطق كما تتورع في المأكل والمشرب والورع عبارة عن اجتناب الحرام والشبهات، وإياك والعجلة إلا فيما أمر به وهو الصلاة في أول الوقت وإكرام الضيف وتجهيز الميت والبكر إذا أدركت وكل عمل للآخرة، وعليك بصلة الرحم فإنها شجنة من الرحمٰن وبها وقع النسب بيننا وبين الله فمن وصل رحمه وصله الله ومن قطعه قطعه الله، كن فقيراً من الله كما أنت فقير إليه مثل قوله عليه السلام، «أعوذ بك منك»، ومعنى فقرك من الله أن لا تشم منك رائحة من روائح الربوبية بل العبودية المحضة كما أنه ليس في جناب الحق شيء من العبودية ويستحيل ذلك عليه فهو رب محض فكن أنت عبداً محضاً وإياك والبطنة فإنها تذهب بالفطنة فكل لتعيش وعش لتطيع ربك ولا تعش لتأكل ولا تأكل لتسمن وعامل كل من تصحبه أو يصحبك بما تعطيه رتبته فعامل الله بالوفاء لما عاهدته عليه من الإقرار بالربوبية وعامل الرسل بالإقتداء والملائكة بالطهارة، وعلى هذا

قال عليه السلام، «يا علي ابدأ طعامك بالملح واختم بالملح فإن الملح شفاء من سبعين داء منها الجنون والجذام والبرص ووجع الأضراس ووجع البطن، يا علي إذا دخلت فقل بسم الله وبالله أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله يقول الله في ذكر عبدي والناس غافلون».

قال بعض المشائخ قلت لشيخي أوصني قال، يا ولدي سد الباب واقطع الأسباب وجالس الوهاب يكلك من غير حجاب، وسأل بعضهم أي الإخوان أحب إليك؟ قال الذي يغفر زلتي ويسد خلتي ويقبل علتي، أوحي الله إلى موسى كن كالطير الوحداني يأكل من رؤوس الأشجار ويشرب من الماء القراح إذا جنه الليل يأوي إلى كهف من الكهوف استيناساً بي واستيحاشاً ممن عصاني، من أحسن سريرته أحسن الله علانيته ومن أصلح أمر آخرته أصلح الله أمر دنياه ومن أصلح لما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، سأل أبو حازم الأعرج ما في بالك يا شيخ قال الرضا عن الله والغنا عن الناس.

حج هارون الرشيد راجلاً لأجل يمينه حين حنث بها فقعد يستريح في ظل ميل فمر به البهلول وقال له:

هب الدنيا تواتيكا أليس الموت يأتيكا
ألا يا طالب الدنيا دع الدنيا لشانيكا
إلى كم تطلب الدنيا وظل الميل يكفيكا

من سلك سبيل السداد بلغ كنه المراد والله أعلم.

كتاب اصطلاح الصوفية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وعليك أيها الولي الحميم والصفي الكريم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد: فإنك أشرت إلينا بشرح الألفاظ التي تداولها الصوفية المحققون من أهل الله بينهم لما رأيت كثيراً من علماء الرسوم قد سألونا في مطالبة مصنفاتنا أهل طريقنا مع عدم معرفتهم بما تواطأنا عليه من الألفاظ التي بها نفهم بعضاً عن بعض كما جرت عادة أهل كل فن من العلوم فأجبتك إلى ذلك ولم أستوعب الألفاظ كلها ولكن اقتصرت منها على الأهم فالأهم وأضربت عن ذكر ما هو مفهوم من ذلك عند كل من ينظر فيه بأقل نظرة لما فيها من الاستعارة والتشبيه وقد أوردنا ذلك لفظة لفظة والله المؤيد والنافع بمنه لا رب غيره.

فمن ذلك الهاجس: يعبرون به عن الخاطر الأول وهو الخاطر الرباني وهو لا يخطىء أبداً وقد يسميه سهل السبب الأول ونقر الخاطر، وإذا تحقق في النفس سموه إرادة، وإذا تردد الثالثة سموه هماً، وفي الرابعة سموه عزماً، وعند التوجه إلى الفعل إن كان خاطر فعل سموه قصداً ومع الشروع في الفعل سموه نية.

الإرادة: وهي لوعة في القلب يطلقونه ويريدون بها إرادة التمني وهي منه وإرادة الطبع ومتعلقها الحظ النفسي وإرادة الحق ومتعلقها الإخلاص.

المريد: هو المتجرد عن إرادته وقال أبو حامد هو الذي صح له الأسماء في جملة المنقطعين إلى الله بالاسم.

المراد: عبارة عن المجذوب عن إرادته مع تهيؤ الأمور له فهو يجاوز الرسوم كلها والمقامات من غير مكابدة.

السالك: هو الذي مشى على المقامات بحاله لا بعلمه فكان العلم له عيناً.

المسافر: هو الذي سافر بفكره في المعقولات وهو الاعتبار فعبر من العدوة الدنيا إلى

العدوة القصوى.

السفر: فعبارة عن القلب إذا أخذ في التوجه إلى الحق تعالى بالذكر.

الطريق: فعبارة عن مراسم الحق تعالى المشروعة التي لا رخصة فيها.

الوقت: فعبارة عن حالك في زمن الحال لا تعلق له بالماضي والمستقبل.

الأدب: فوقتاً يريدون به أدب الشريعة، ووقتاً أدب الخدمة، ووقتاً أدب الحق، وأدب الشريعة الوقوف عند مرسومها، وأدب الخدمة الفناء عن رؤيتها مع المبالغة فيها، وأدب الحق أن تعرف مالك وماله والأديب من أهل النشاط.

المقام: عبارة عن استيفاء حقوق المراسم على التمام.

الحال: فهو ما يرد على القلب من غير تعمل ولا اجتلاب ومن شرطه أن يزول ويعقبه المثل بعد المثل إلى أن يصفو وقد لا يعقبه المثل ومن هنا نشأ الخلاف فمن أعقبه المثل قال بدوامه ومن لم يعقبه مثل قال بعدم دوامه وقد قيل الحال بغير الأوصاف على العبد.

وأما عين التحكيم: فهو تحري الولي بما يراه إظهاراً لمرتبته لأمر يراه.

الإنزعاج: هو أثر الوعظ الذي في قلب المؤمن وقد يطلق ويراد به التحرك للوجد والأنس.

الشريعة: عبارة عن الأخذ بالتزام العبودية.

الشطح: عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى وهي نادرة أن توجد من المحققين.

العدل والحق المخلوق به: فعبارة عن أول موجود بواطنهم أثر البتة وهم أعلى الطائفة وتلامذتهم يتقلبون في أطوار الرجولية.

وأما المكان: فعبارة عن منزل في البساط لا يكون إلا لأهل الكمال الذين تحققوا بالمقامات والأحوال وجاوزوها إلى المقام الذي فوق الجلال والجمال فلا صفة لهم ولا نعت.

القبض: حال الخوف في الوقت وقيل وارد يرد على القلب توجبه إشارة إلى عتاب وتأديب وقيل أحد وارد الوقت.

البسط: هو عندنا من يسع الأشياء ولا يسعه شيء وقيل هو حال الرجا وقيل هو وارد

توجبه إشارة إلى قبول ورحمة وأنس.

الهيبة: هي أثر مشاهدة جلال الله في القلب وقد تكون عن الجمال الذي هو جمال الجلال.

الأنس: أثر مشاهدة جمال الحضرة الإلٰهية في القلب وهو جمال الجلال.

التواجد: استدعاء الوجد وقيل إظهار حالة الوجد من غير وجد.

الوجد: ما يصادف القلب من الأحوال المغيبة له عن شهوده.

الوجود: وجدان الحق في الوجد.

الجلال: نعوت القهر من الحضرة الإلٰهية.

الجمال: نعوت الرحمة والإلطاف من الحضرة الإلٰهية.

الجمع: إشارة إلى حق بلا خلق.

جمع الجمع: الاستهلاك بالكلية في الله.

الفرق: إشارة إلى خلق بلا حق وقيل مشاهدة العبودية.

البقاء: رؤية العبد قيام الله على كل شيء.

الفناء: رؤية العبد للعلة بقيام الله على ذلك.

الغيبة: غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق لشغل الحس بما ورد عليه.

الحضور: حضور القلب بالحق عند غيبته.

الصحو: رجو الإحساس بعد الغيبة بوارد قوي.

السكر: غيبة بوارد قوي.

الذوق: أول مبادي التجليات الإلهية.

الشرب: أوسط التجليات.

الري: غاياتها في كل مقام.

المحو: رفع أوصاف العادة وقيل إزالة العلة وقيل ما ستره الحق ونفاه.

الإثبات: إقامة أحكام العبادة وقيل إثبات المواصلات.

القرب: القيام بالطاعة وقد يطلق القرب على حقيقة قاب قوسين.

البعد: الإقامة على المخالفات وقد يكون البعد منك ويختلف باختلاف الأحوال فيدل على ما يراد به قرائن الأحوال وكذلك القرب.

الحقيقة: سلب آثار أوصافك عنك بأوصافه بأنه الفاعل بك فيك منك لا أنت ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾.

النفس: روح يسلطه الله تعالى على نار القلب ليطفىء شررها.

الخاطر: ما يرد على القلب والضمير من الخطاب ربانياً كان أو ملكياً أو نفسياً أو شيطانياً من غير إقامة وقد يكون لكل وارد لا تعمل لك فيه.

علم اليقين: ما أعطاه الدليل.

عين اليقين: ما أعطته المشاهدة والكشف.

حق اليقين: ما حصل من العلم بما أريد له ذلك المشهود.

الوارد: ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة من غير تعمل ويطلق بإزاء كل ما يرد من كل اسم على القلب.

الشاهد: ما تعطيه المشاهدة من الأثر في قلب المشاهد فذلك هو الشاهد وهو على حقيقة ما يضبطه القلب من صورة المشهود.

النفس: ما كان معلوماً من أوصاف العبد.

الروح: يطلق بإزاء الملقى إلى القلب علم الغيب على وجه مخصوص.

السر: يطلق فيقال سر العلم بإزاء حقيقة العالم به، وسر الحال بإزاء معرفة مراد الله فيه، وسر الحقيقة بإزاء ما تقع به الإشارة.

الوله: إفراط الوجد.

الوقفة: هو الحبس بين المقامين.

الفترة: خمود نار البداية المحرقة.

التجريد: إماطة السوى والكون من القلب والسر.

اللطيفة: كل إشارة رقيقة المعنى تلوح في الفهم لا تسعها العبارة وقد تطلق بإزاء النفس الناطقة.

العلة: تنبيه الحق لعبده سبب وبغير سبب.

الرياضة: رياضة الأدب وهو الخروج عن طبع النفس ورياضة الطلب وهو صحة المراد به وبالجملة فهي عبارة عن تهذيب الأخلاق النفسية.

المجاهدة: حمل النفس على المشاق البدنية ومخالفة الهوى على كل حال.

الفصل: فوت ما ترجوه من محبوبك وهو عندنا تميزك عنه بعد حال الاتحاد.

الذهاب: غيبة القلب عن حس كل محسوس بمشاهدة محبوبه كان المحبوب ما كان.

الزمان: السلطان.

الزاجر: واعظ الحق في قلب المؤمن وهو الداعي.

السحق: ذهاب تركيبك تحت القهر.

المحق: فناؤك في عينه.

الستر: كل ما سترك عما يفنيك وقيل غطاء الكون وقد يكون الوقوف مع العادات وقد يكون الوقوف مع نتائج الأعمال.

التجلي: ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب.

التخلي: اختيار الخلوة والإعراض عن كل ما يشغل عن الحق.

المحاضرة: حضور القلب بتواتر البرهان وعندنا مجاراة الأسماء بينها بما هي عليها من الحقائق.

المكاشفة: تطلق بإزاء تحقيق الإبانة بالقهر وتطلق بإزاء تحقيق زيادة الحال وتطلق بإزاء تحقيق الإشارة.

المشاهدة: تطلق على رؤية الأشياء بدلائل التوحيد وتطلق بإزاء رؤية الحق في الأشياء وتطلق بإزاء حقيقة اليقين من غير شك.

المحادثة: خطاب الحق للعارفين من عالم الملك والشهادة كالنداء من الشجرة لموسى.

المسامرة: خطاب الحق للعارفين من عالم الأسرار والغيوب نزله به الروح الأمين على قلبك.

اللوائح: وهي ما تلوح للأسرار الظاهرة من السمو من حال إلى حال وعندنا ما تلوح للبصر إذا لم يتقيد بالجارحة من الأنوار الذاتية لا من جهة السلب.

الطوالع: أنوار التوحيد تطلع على قلوب أهل المعرفة فتطمس سائر الأنوار.

اللوامع: ما يثبت من أنوار التجلي في وقتين وقريباً من ذلك.

البوادة: ما يفجأ القلب من الغيب على سبيل الوهلة أما موجب فرح وأما موجب ترح.

الهجوم: ما يرد على القلب بقوة الوقت من غير تصنع منك.

التلوين: تنقل العبد في أحواله وهو عند الأكثرين مقام ناقص وعندنا هو أكمل المقامات وحال العبد فيه حال قوله تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: ٢٩].

التمكين: عندنا هو التمكن في التلوين وقيل حال أهل الوصول.

الرغبة: رغبة النفس في الثواب ورغبة القلب في الحقيقة ورغبة السر في الحق.

الرهبة: رهبة الظاهر لتحقق الوعيد ورهبة الباطن لتقلب العلم ورهبة السر لتحقيق علم السبق.

المكر: إرداف النعم مع المخالفة وإبقاء الحال مع سوء الأدب وإظهار الآيات والكرامات من غير أمر ولا حد.

الاصطلام: نعت وله يرد على القلب فيسكن تحت سلطانه.

الغربة: تطلق بإزاء مفارقة الوطن في طلب المقصود ويقال غربة عن الحال من حقيقة النفوذ فيه وغربة عن الحق من الدهش عن المعرفة.

الهمة: تطلق بإزاء تجريد القلب للمنى وتطلق بإزاء أول صدق المريد وتطلق بإزاء جمع الهمم بصفاء الإلهام.

الغيرة: غيرة في الحق لتعدي الحدود وغيره تطلق بإزاء كتمان الأسرار والسرائر وغيرة الحق ضنته على أوليائه وهم الضنائن.

الحرية: إقامة حقوق العبودية لله تعالى فهو حر عن ما سوى الله.

المطالعة: توقيعات الحق للعارفين ابتداء وعن سؤال منهم فيما يرجع إلى حوادث الكون.

الفتوح: فتوح العبارة في الظاهر وفتوح الحلاوة في الباطن وفتوح المكاشفة.

الوصل: إدراك الفائت.

الاسم: الحاكم على حال العبد في الوقت من الأسماء الإلهية.

الوسم: نعت يجري في الأبد بما جرى في الأزل.

الزوائد: زيادات الإيمان بالغيب واليقين.

الخضر: يعبر به عن البسط.

اليأس: يعبر به عن القبض.

الغوث: هو واحد الزمان بعينه إلا أنه إذا كان الوقت يعطي الالتجاء إلى عنايته.

الواقعة: هو ما يرد على القلب من ذلك العالم بأي طريق كان من خطاب أو مثال.

العنقاء: هو الهواء الذي فتح الله فيه به أجساد العالم.

الورقاء: هو النفس الكلية وهو اللوح المحفوظ.

العقاب: القلم وهو العقل الأول.

الغراب: الجسم الكلي.

الشجرة: الإنسان الكامل.

السمسمة: معرفة تدق عن العبارة.

الدرة البيضاء: العقل الأول.

الزمردة: النفس الكلية.

السبخة: الهباء.

الحرف: اللغة وهو ما يخاطبك به الحق من العبارات.

السكينة: ما تجده من الطمأنينة عند تنزل الغيب.

التداني: معراج المقربين.

التدلي: نزول المقربين ويطلق بإزاء نزول الحق إليهم عند التداني.

الترقي: التنقل في الأحوال والمقامات والمعارف.

التلقي: أخذك ما يرد من الحق عليك.

التولي: رجوعك إليك منه.

الخوف: ما تحذر من المكروه في المستأنف.

الرجاء: الطمع في الأجل.

الصعق: الفناء عند التجلي الرباني.

الخلوة: محادثة السر مع الحق حيث لا ملك ولا أحد.

الجلوة: خروج العبد من الخلوة بالنعوت الإلهية.

المخدع: موضع ستر القطب عن الأفراد الواصلين.

الحجاب: كل ما ستر مطلوبك عن عينك.

النوالة: الخلع التي تخص الأفراد وقد تكون الخلع مطلقة.

الجرس: إجمال الخطاب بضرب من القهر.

الاتحاد: تصيير الذاتين واحدة ولا يكون إلا في العدد وهو حال.

القلم: علم التفصيل.

الأنانية: قولك أنا.

النون: علم الإجمال.

الهوية: الحقيقة في عالم الغيب.

اللوح: محل التدوين والتسطير المؤجل إلى حد معلوم.

الأنية: الحقيقة بطريق الاصنافة.

الرعونة: الوقوف مع الطبع.

الإلهية: كل اسم إلهي مضاف إلى البشر.

الختم: علامة الحق على القلوب من العارفين.

الطبع: ما سبق به العلم في حق كل شخص.

الآلية: كل اسم إلهي مضاف إلى ملك أو روحاني.

لمنصة: مجلي الأعراس وهي تجليات روحانية.

السوي: هو الغير.

الجسد: كل روح ظهر في جسم ناري أو نوري.

النور: كل وارد إلهي يطرد الكون عن القلب.

الظلمة: قد تطلق على العلم بالذات فإنها لا تكشف معها غيرها.

الضياء: رؤية الأعيان بعين الحق.

الظل: وجود الراحة خلف الحجاب.

القشر: كل علم يصون فساد عين المحقق لما يتجلى له.

اللب: ماصين من العلوم عن القلوب المتعلقة بالكون.

لب اللب: مادة النور الإلهي.

العموم: ما يقع من الاشتراك في الصفات.

الخصوص: أحدية كل شيء.

الإشارة: تكون مع القرب مع حضور القلب وتكون مع البعد.

الغيب: كل ما ستره الحق عنك منك لا منه.

عالم الأمر: ما وجد عن الحق من غير سبب ويطلق بإزاء الملكوت.

عالم الخلق: ما وجد عند سبب ويطلق أيضاً بأزاء عالم الشهادة.

العارف والمعرفة: من أشهده الرب نفسه فظهرت عليه الأحوال والمعرفة حاله.

العالم والعلم: من أشهده الله ألوهيته وذاته ولم يظهر عليه حال والعلم حاله.

الحق: ما وجب على العبد من جانب الله وما أوجبه الحق على نفسه.

الباطل: هو العدم.

الكون: كل أمر وجودي.

الرداء: الظهور بصفات الحق.

الرين: محل الاعتدال في الأشياء.

الكمال: التنزيه عن الصفات وآثارها.

البرزخ: العالم المشهود بين عالم المعاني وعالم الأجسام.

الجبروت: عند أبي طالب هو عالم العظمة وعند الأكثرين العالم الوسط.

الملك: عالم الشهادة.

الملكوت: عالم الغيب.

مالك الملك: هو الحق في حال مجازاة العبد على ما كان أمره به.

المطلع: النظر إلى عالم الكون والناظر بعين الحق.

حجاب العزة: هو العمى والحيرة.

المثل: هو الإنسان وهي الصورة التي فطر عليها.

العرش: مستوى الأسماء المقيدة.

الكرسي: موضع الأمر والنهي.

القدم: ما ثبت للعبد في علم الحق.

العيد: ما يعود على القلب من التجليات بإعادة الأعمال.

الحد: الفصل بينك وبينه.

الصفة: ما طلب المعنى كالعالم.

النعت: ما طلب النسبة كالأول.

الرؤية: المشاهدة بالبصر لا بالبصيرة حيث كان.

كلمة الحضرة: كن.

اللسن: ما يقع به الإفصاح الإلهي لآذان العارفين.

الهو: الغيب الذي لا يصح شهوده.

الفهوانية: خطاب الحق بطريق المكافحة في عالم المثال.

السواء: بطون الحق في الخلق والخلق في الحق.

العبودة: من شاهد نفسه لربه مقامه العبودة.

الانتباه: زجر الحق للعبد على طريق العناية.

اليقظة: الفهم عن الله في زجره.

التصوف: الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً وباطناً وهي الخلق الإلهية وقد يقال بإزاء إتيان مكارم الأخلاق وتجنب سفسافها.

التحلي: الإتصاف بالأخلاق الإلهية وعندنا الإتصاف بأخلاق العبودية وهو الصحيح فإنه أتم وأزكى.

سر السر: ما انفرد به الحق عن العبد.

جملة هذه الألفاظ مائة وثمان وتسعون. ألفه المؤلف رضي الله عنه بمدينة ملطية في عشر صفر سنة خمس عشرة وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

فرغ بحمد الله وعونه ظهر يوم الأحد ثالث ربيع الثاني أحد شهور سنة سبع وتسعين بعد تسعمائة الهجرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام والحمد لله رب العالمين حمداً يوافي نعمه ويكافي مزيده على ما أنعم ظاهراً وباطناً ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.